امرأة سيئة السمعة

بسيم
الذويب



بسيم الذويب

إمرأة سيئة السمعة

توزيع مكتبة المثنى – بغداد

طبعت في مطابع دار الزمان – ١٩٦٧



امرأة سيئة السمعة

« من هذه المرأة التي استأجرت دار ابيك يــوم امس الاول يا عماد ؟ » قال الشيخ ذلك بعد ان سحب نفسا من نارجيلته الفضية..
فأجاب عماد :

« أنها امرأة نصف .. كانت ذات جمال اخاذ على ما يبدو تقول انها مريضةوقد استأجرت دارنا القوراء المحاطة بجنة ذات اعناب ونخل ورمان ... كي تقضيفترة النقاهة بعد ابلالها من مرضها في جو هادىء بعيد عن المنغصات وفي نجوة من زيارة الثقلاء .»

والقى الشيخ بمبسم النارجيلة من يده جانبـا ونظر الى رجـل يجلس قبالته وقال : « اعد على سمع ولدنا عماد ما تحدثت به الينـا عن هذه المرأة قبل حين ياعباس . »

قال عباس :

« علمت يا عماد ان المرأة التـي استأجرت داركم هي (فلانـة الفلانية) وكلنا نعلم سيرة هذه المرأة وكيف جمعت هذا المال الـذي تستأجر بجزء منه دار ابيك الذي ضحى بحياته من اجل الوطن .. »
قال عماد :

« هل من واجبي ان افتح محضر تحقيـق مع كل من يستأجـر الدار سائلا عن اصله وفصله ومهنته الحالية او السابقة ومن اى مصدر جمع ماله ؟ »

فصرخ به الشيخ :

« ماذا تقول ؟؟ نحن لا نسـمح ان تسكن بجوارنا أمرأة كانت

تبيع الهوى في شبابها ثم كبرت فاتخذت من (السمسرة) مورد رزق لها فجمعت ثروة طائلة واخذت تغدق الاموال على ملذاتها تتمتع بأطايب الحياة حتى دانت لها رقاب الكثيرين من رجالات البلد الذين غمرتهم بافضالها فخفضوا لها جناح الذل ووطأوا لها اكناف الحرمة والتبجيل ... فأخذ منها الغرور حتى جاءت تجاورنا وستجرؤ بعد وقت على تبادل الزيارات مع نسائنا وبناتنا المحصنات .. ماشاء الله كأنك لم تسمع قول الشاعر

لا تربط الجرباء حول صحيحة ـ خوفي على تلك الصحيحة تجرب .

قال عماد :

« ثق يا عماه انني لا اعرف المرأة ولم اعلم عنها شيئا . ان الذى استأجر الدار باسمه هو رجل وقور قال ان له قريبة مريضة ستسكن الدار طمعا ــ بالهدوء ــ وهربا من الناس كما قلت لك فى اول الامر واقسم لك على هذا .. » ونهض رجل من الحاضرين . فقال بحماس:

« اسمع يا عماد نحن نطلب اليك ان تخرج هذه المرأة خلال اسبوع والا فسوف تضطرنا الى تقديم (المضابط) الى الجهات الرسمية او تتخذ اجراء آخر قد لا يخلو من بعض العنف .. »

فقال الشيخ :

« لا لزوم لهذا القول يا عبدالرحمن بك .... فولدنا عماد عاقل وقد ذكر انه يجهل كل شيء ــ وسيقوم بما يحتمه عليه الواجب نحو ابناء محلته ــ ونحو ذكرى والده البطل الشهيد »

وكان المساء قد اكتهل فيما هم يتحدثون فانفض عقد الحاضرين وخرج عماد من مجلس الشيخ وهو يتميز من الغيظ وقد اخذته الحيرة لا يدرى كيف يصنع ... وماذا يفعل لهذه المرأة حين يصبحها غدا هل يقول لها : هاجمني سكان الحي جميعا بسبب ... سكناك ... دارنا هذه ....؟

ام يقول انه فى حاجة الى الدار ولم يمض على تأجيرها اياها الا

بضعة ايام .... ام ماذا ؟؟

وأخذ يقلب الامر على وجوهه وهو مستلق على فراشـه يفكر حتى استغرق في النوم فى الهزيع الاخير من الليل .

وهب من نومه وقد ارتفع الضحى ولذعته حرارة الشمس فاغتسل وارتدى ملابسه وتناول فطورا بسـيطا وغادر الدار عجلا الى بيت المرأة فاستقبلته المرأة هاشة باشة واستأذن في الدخول وامسكت بيده فاجلسته فى مقعد وثير وجلست الى جانبه ، وامرت له بما لذ وطاب من نقل وفاكهة وشراب واخذت تدير الحديث بمهارة نادرة وتسـأله عن الصحة والاحوال ، و لاتنسي ان تترحم على روح والده الشـهيد خلال الحديث بين آونة واخرى وتشيد ببطولة رفاقـه الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الوطن . وقد اعلنت الحداد حين انهى اليها خبر اسـتشهادهم . والله يعلم كم من الدمـوع قد ذرفت حزنا وألما على الانتكاسة التي اصيب بها العراق من جراء فشل الحركـة الثوريـة المباركة . وكان عماد يصغي الىحديثها وقد فقد وعيه او كاد لا يدرى كيف يبدأ قوله الذى جاء من اجله وهو يرى ما يرى ويسمع ما يسمع من روح وطنية عالية لا ترتقي اليها الشبهات ...

وحانت منه التفاتة فرأى جهاز المذياع مجللا بالسواد ولما اشار اليه مستفهما قالت انما فعلت ذلك حدادا على الشهداء الابطال ومنهم والده المرحوم . فنكس رأسـه الى الارض لا يأتي بنأمة ولا ينبس بكلمة ثم نهض بعد قليل مودعا وخرج مـسرع الخطى لا يلوى على شيء وقد شيعته الى الباب الخارجي وهي تستمطر شـآبيب الرحمـة على والده الشهيد .

وانقطع عن حضور مجلس الشيخ اسبوعا حتى بعث اليـه هذا برسول يستقدمه اليه فحضر ذلكالمجلس مكرها وسلم وجلس فى ركن قصي من الثوى الواسع .. وبادره الحاضرون وفي مقدمتهم الشـيخ بعبارات العتاب ، باسلوب مؤدب اول الامر ثم تطور العتـاب الى ما

يشبه الشجار اخيرا ، وحصل هرج ومرج في ذلك المجلس الذي ضم معظم الحي كل يريد ان يسبق زميله في توجيه اللوم الى الشاب المسكين حتى بلغ الامر حدا لا يصح معه السكوت فقام على قدميه وصاح فيهم وهو يرتجف : « مالكم تصيحون علي » كالمجانين مهاجين هذه المرأة ؟؟ ما الذى صدر منها ؟؟ لقد مر على استئجارها الدار مدة تقرب من ثلاثة اشهر فهل رأيتم احدا يزورها نهارا او طارقا يقتحم عليها الدار ليلا . اللهم الا خادمها الخاص الذى يأتيها بالطعام والشراب . هل سمع احد منكم آناء الليل واطراف النهار غناءا او نغما صادرا عن آلة طرب .. او مايدل على مجلس خمر وعربدة ..؟ »

« وهل شاهدتم خيالها وراء زجاج النوافذ تترصد المارة او تتطلع الى ابناء الجيران ، هل خرجت من دارها في ساعة من ساعات الليل او النهار ....؟ »

« ماذا يهمني انا او يهمكم انتم اذا كان لها ماض ملوث وقد اتى عليه الزمن وعفى عليه النسيان ، فأعلنت التوبة واستغفرت ربها، وذهبت كما علمت اخيرا لزيارة بيت الله الحرام وقد قال عز من قائل..

(قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم) .

« فهل يغفر الله وانتم لا تغفرون .. »

وعاد الى مجلسه بين ضجيج الحاضرين وثورتهم الا ان الشيخ صرخ به صرخة مدوية . وامره بمغادرة المجلس ... فخرج مغضبا يتعثر بأذيال الالم ، وذهب الى قريب له يعرض عليه الامر ويطلب ابداء المشورة .

فأشار اليه هذا ان يهيء الخمسمائة دينار التي تسلمها من المرأة فاذا كان من الغد فليذهب اليها فيزعم ان عمه قد عاد من اوربا قبل يومين وهو يبتغي سكنا له وليس خيرا له من هذه الدار يستعيد فيها ذكريات شقيقه الراحل ويستجم من عناء الغربة، ووعثاء السفر ويعيد

اليها ما دفعته اجرا للدار ...

ورن جرس الباب في البيت الكبير – وهرعت المرأة تستقبل الزائر الشاب بالترحاب . وتأخذ بيده فتجلسه في المكان المعهود، وتتحدث اليه في كثير من الرفق والحنان . والشاب واجم لا يكاد ينطق بحرف واحد او يأتي بحركة ، وتنظر المرأة اليه فتعجب من حاله وتقول :

« مالي اراك ساهما على غير ما اعتدته منك من تبسط في الحديث او سرد انباء البلد ...؟؟ »

قال :

« اشعر بصداع شديد انتابني منذ يومين لم تفد معه حبوب الاسبرين او وصفات الطبيب . »

قالت :

« هل تريد ان احدس واخمن .. اذن فاعلم انك في مأزق شديد قد اخذتك الحيرة لا تدرى كيف تنطق بالحكم الصادر باخراجي من الدار ... وانا اكفيك مشقة الكلام واعدك اني سأترك الدار في صباح الغد وعليك ان تحضر في الساعة التاسعة لتتسلم المفاتيح .. »

فغمغم عماد بكلام غير مفهوم ختمه بقوله :

« من اين علمت هذا ؟؟ »

قالت :

« من ترددك الكثير الى الدار – واطالة الجلوس عندي وعلائم الارتباك التي تظهر عليك بين حين وآخر ... والالفاظ التي ترتسم على شفتيك تريد ان تخرج فتطبق فمك عليها وتردها الى صدرك.. فعلام يدل كل هذا ؟ انه لا يدل على انك مأخوذ بجمالي الذاهب وانك واقع بحبي على كل حال .. »

وضحكت ضحكة هستيرية ثم اردفت قائلة : « انا اعلم انك مكره لا بطل . وان هؤلاء المتزمتين يضغطون عليك ويلحون منذ شهر أو

يزيد مطالبين باقصائي عن الدار .. وانك تحاورهم وتداورهم منذ امد فتأتي لزيارتي لتنهي الي الخبر . ولكن شجاعتك تخونك . وبالاحرى كرم محتدك وطيب عنصرك يمنعانك من ذلك ، فتقوم مودعا لتعود الي في اليوم التالي وهكذا حتى اشتد عليك الضغط فجئتني اليوم ساهما واجما . فانقذتك من ورطتك وكفيتك مؤونة القول الذى تشفق من اخراجه من فمك .. فهل يرضيك ؟ » فتصبب العرق من جبين عماد خجلا وقال :

« ليس الامر كما توهمت يا سيدتي بل الواقع هو ان عمي قد عاد من اوربا قبل يومين وهو يفتش له عن سكن وعرض علي ان ... لما فقاطعته قائلة :

« دعك من هذه الاسطورة يا ولدى .. ان الحقيقة واضحة .. وضوح الشمس فى رائعة النهار .. وقد اخبرتك فى أول الحديث اني مستعدة لمغادرة الدار حرصا على سمعتك وانقاذا لك مما تواجهه من هؤلاء الانانيين فى كل يوم من عنت وارهاق لاعصابك .. »

« ولكني اريد ان اقول لك شيئا قبل ان اغادر هذه الدار لتعلم اى رجال هؤلاء الذين يتظاهرون بالحرص على (الشرف) والخوف من انتقال (الجرب) الى نسائهم (الصحيحات) المحصنات ..

ان زوجة فلان كانت تتردد على دارى قبل بضع سنوات .. لتجتمع بخليلها فلان الذى تعرفه انت جيدا ... وان الآنسة (المحصنة) ابنة عبد الرحمن بك الذى يحمل الراية الآن لمحاربتي كانت تقضي الليالي الحمراء فى دار (السمسيرة) فلانة حتى قبيل اعلان خطوبتها على الوزير السابق فلان بك ...

وفلان .... وفلانة .... وفلان .. كل اولئك لو رميت بهم في النهر لنجسوه كما يقول المثل الدارج ... فماذا يريد مني هؤلاء .

ان المجتمع الفاسد .. والمحيط القاسي .. والظروف السيئة هي

التي رمتني بهذه الحمأة النتنة . انك لا تعلم كم تتألم نحن اللواتي تسمونهن (مشبوهات) او (عاهرات) حين نفكر بحالتنا التي اوقعنا فيها سوء الطالع ... هل تظن اننا لا نحن الى حياة الاسرة الهينة الهادئة ... ثق يا ولدى ان الكثيرات من امثالنا هن اشرف نفسا وأعف عنصرا من هاتيك النسوة اللواتي تضمهن القصور الشامخة المنتشرة في هذه الضواحي ...»

فقال لها عماد :

« انك على حق يا سيدتي ... ولقد آلمني حديثك جد الالم ... والله لن ادعك تتركين هذه الدار ما حييت، الا اذا مللت انت سكناها».

قالت :

« لقد سبق السيف العذل ... ولقد اخبرتك بأن الدار ستكون خالية في صباح الغد ..»

قال :

« ولكني اقسمت ...»

قالت :

« انك استثنيت في قسمك . واني قد مللت سكني هذه الدار من اليوم » .

وسكت الشاب قليلا ثم مد يده الى جيبه فأخرج رزمة الاوراق المالية فوضعها على المائدة وقال :

« دونك دنانيرك يا سيدتي »

قالت :

« وما شأن الدنانير في موضوعنا هذا ؟ ان بيني وبينك عقدا استأجرت به الدار لمدة سنة كاملة ودفعت لك ايجارها ... ولا يزال العقد ساري المفعول ، ولكن كرهت عيشتي هنا ... فأخليت الدار من تلقاء نفسي ... وليس لي بهذه الخمسمائة حق .. »

فقفز الشاب من مقعده قائـلا :

« ماذا تقصدين » ؟

« أتريدين ان تتكرمي علي بدنانيرك هذه صدقة بعد كل الـذي جرى ...» .

قالت :

« معاذ الله ان اقصد اهانتك يا عزيزي .. ولكني علم الله كنت ولا ازال اؤمن بثورة والدك الشهيد وصحبه الاكرمين على الاستعمار البريطاني البشع ... وكم راودتني فكـرة ان اهب لكم انتـم أولاد أولئك الابطـال وعائـلاتهم مبلغا محترما من المال ... بعد ان صادر الظالمون اموالكم وعقاركم .. ولكني خشيت ان تقول انت وغيرك... ما لهذه المرأة تريد ان تسيء الى عائلات الشهداء بعد ان نكبهم الدهر بفقد اولياء امورهم اما الآن فاني اتمسـك بحقي في رفض هذا المال لان عقد الايجار لا يزال نافذا كما قدمت لك ..»

ولكن عمادا رفض استرداد المال باباء وشمم وقال :

«خذي دنانيرك فليس لي بها حق ولا تطيلي الجدل والمناقشة..»

قال هذا وهم بالخروج فاستوقفته قائلة : « ايها البطل الصغير، سأسترد دنانيري بعد ان تأخذ منها نصيبك من ايجار الدار للمدة التي سكنتها فيها .. »

قال :

« لا .... لا ... فانا الذي طلبت اليك تخلية الدار . »

قالت :

« اقسم عليك بروح ابيك الطاهرة الا ما حققت لي رغبتـي هذه كيما استريح الى حل وسط يقرب الشقة بيننا » .

فمد عماد يده الى المال واخذ منه اربعين دينارا وقال : « هذا المبلغ هو ما استحقه منها . وتسلمي الباقي » فابتسمت وقالت :

شكرا على ذلك والى اللقاء اذا كتب الله لنا لقاء آخر بعد ان يرحل الاستعمار عن هذه الديار حاملا عصاه على كتفه) ..

قال :

« عسى ان يكون ذلك قريبا » ..

وحين اجتاز باب الحديقة الواسعة التفت اليها فوجدها تتهاوى على العشب الاخضر وقد انخرطت فى البكاء ....؟



الطوربيد

فرغت الاسرة من تناول طعام العشاء ، ومما اعتاد افرادها احتساءه من كؤوس الشاى اللذيذ في مجلسهم المعهود كل ليلة ، واخذوا يتحدثون عن هذا الهجوم الغادر الذى قامت به (اسرائيل) يوم امس على سيناء . وكيف قامت لهذا النبأ مدينة دمشق وقعدت . بل ان الامة العربية باقطارها الممتدة من بحر الظلمات حتى خليج العرب، قد ارتاعت لهذا العدوان الاثيم المفاجىء .

ومدت الام يدها لتدير مفتاح المذياع فقد آن وقت اذاعة نشرة الاخبار من محطة دمشق وبدأ المذيع ينقل الى المستمعين نبأ الانذار الذى وجهته الحكومتان البريطانية والفرنسية الى جمهورية مصر طالبة اليها الانسحاب الى مسافة عشرة كيلو مترات غربي القناة ، وكانت مدة الانذار قصيرة لا تتجاوز اثنتي عشرة ساعة .

وقالت الام لولدها : ــ

« اني لأخشى ان يتطور الامر ، اذا رفض المصريون هذا الانذار، فتنشب الحرب بينهم وبين الدولتين الكبيرتين فيصيبنا بعض رشاشها وربما امتدت الى هذه البلاد » .

ونظر اليها ولدها قائلا :

« سواء امتدت الحرب الى سورية ام اقتصرت على مصر وحدها فالامر سيان والنتيجة واحدة .»

فقالت له امه :

« كيف تكون النتيجة واحدة ، اذا لم تشترك حكومتنا في القتال

رسميا ، واحمد الله على انك بعيد عن الخطر يا ولدى . والا ... »

فقاطعها قائلا وكأنه يخاطب نفسه :

« لست بعيدا عن الخطر يا اماه .... »

قالت : ..

« كيف لا وانت سورى الجنسية ، ولست من رجال البحرية المصرية . »

فقال بحدة :

« ولكني عربي يا اماه . وانت ادرى بايماني الشديد بالقومية العربية ، فانا لا افرق بين دمشق والقاهرة ــ ولست ادعو مسقط رأسي وطنا . بل ان وطني كل بقعة من البلاد العربية . »

قالت :

« اني أعلم انك مؤمن بعروبتك ايمانا عميقا . ولكن الاعتداء موجه نحو الكيان المصرى الحالي بصورة خاصة ، وقد سمعت باذنيك صيغة الانذار وهو يدعو اليهود كما يدعو المصريين الى الانسحاب عشرة كيلو مترات شرقي القناة . اى ان القوم يحاولون ، على ما يبدو التدخل بين المتخاصمين حفظا للسلام . »

فضحك ولدها ضحكة قصيرة وقال :

« ما هذا الهراء يا اماه ... ان طيبة قلبك وصفاء نيتك تدفعان بك احيانا الى التفوه بهذا الكلام المضحك . »

قالت :

« اني لأربأ بك يا ولدى ان تتخذني هزوا . وتخاطبني بهذه اللهجة التي هى اقرب الى التوبيخ منها الى النقاش بين ام وولدها . »

قال :

« معاذ الله ان اقصد اهانتك ياوالدتي العزيزة . فما لهذا قصدت علم الله . ولكني احطت بما لم تحيطي به من امر هؤلاء القوم الذين اتخذوا من الدولة اليهودية المسخ تكأة لهم، وجعلوا من هجومها الغادر

الذى جرى بتدبيرهم ــ حجة للتدخل فى شؤون دولة عربية متحررة لا تسير فى ركابهم ، ليعودوا الى استعمارها من جديد ، فاذا نجحوا فى خطتهم هذه ــ لا سمح الله ولوا وجوههم شطر سورية ليصنعوا بها صنيعهم بمصر . وهكذا سيضربون كل دولة من هذه الدول العربية على حدة ، وليثيروا الواحدة على الاخرى ، فتعلن الحرب الباردة بين حكامها ، ولا يستفيد من ذلك الا الاستعمار وصنيعته اسرائيل . »

وتدخلت اخته التى كانت ساكتة طوال هذا الوقت فى الحديث قائلة: « ان اخي على حق يا اماه ، فالعرب امة واحدة ــ كما كان يردد ذلك والدى المرحوم ــ ولا عبرة بهذه الحدود التى اصطنعها المستعمرون ، ليفتوا فى عضدنا ويفرقونا شيعا واحزابا ، وكل حزب بما لديهم فرحون . »

وعلق بصر الام بصورة زوجها المثبتة على الجدار المقابل . فتنهدت واستنزلت على روحه الرحمة ثم قالت :

« اطال الله عمرك ياولدى لتعوضنا عن ابيك خير عوض ، فقد ربّاك واختك فاحسن تربيتكما . » ثم اردفت قائلة :

« لقد ارعبتني بحديثك هذا . فماذا نفعل اذن ــ اصلحك الله ــ لدرء هذا الخطر . » فقال ولدها بحماس شديد :

« علينا نحن العرب فى جميع اقطارنا من المحيط الى الخليج ــ ان نقف وقفة رجل واحد مؤيدين وناصرين شقيقتنا الكبرى ، ففي نصرها انتصار لنا وفى خذلانها هزيمة لنا ، نحن العرب على اختلاف طوائفنا وادياننا لنا رسالة خالدة ، علينا ان نؤديها كاملة يجب ان تتم رسالة اجدادنا العظام يوم اجتمع منهم الشمل وتوحدت الكلمة . فدانت لهم الدنيا شرقا وغربا ، وانتصروا على اقوى دولتين كانتا قد اقتسمتا العالم القديم . فاصبح في حوزتهم ايوان كسرى وملك قيصر . »

قال هذا واخذ يمسح العرق المتصبب من جبينه ، فقد اخذ منه الحماس حتى نسي نفسه وحسب انه يخطب الناس فى حفل كبير او

مؤتمر قومي .

ثم نظر الى امه واخته وقال بصوت خفيض :

« واذا نشبت المعركة فى مصر فسأكون اول المتطوعين للذهاب الى هناك مشاركا اخوتي فى القتال من اجل هدفنا الواحد . »

فارتاعت امه لقوله هذا وصرخت به :

« يا ولدى ماذا تقول . كيف اسمح بذهابك وانت وحيدى، واعز مخلوق لدى ومعبودى بعد الله . » فقال لها بحزم :

« ان الوطن اعز من الولد . الوطن العربي الحبيب .. الوطن الاكبر الذى يناديني ان هيا للجهاد ... هيا للفداء ... فمن له غيرنا نحن الشباب يا اماه ... الشباب المثقف الواعي ؟ .. »

ولزمت اخته الصمت ... وانحدرت الدموع من عيني الام الارملة وقالت هى تلفظ الكلمات ببطء شديد :

« وخطيبتك يا جول .. ماذا عسى ان تفعل حين ننهي اليها الخبر ؟ ... »

قال :

« ان خطيبتي لا تقل عني ايمانا بعروبتها وسوف تشجعني على التطوع ، وتنتظرني على رصيف الميناء فى اللاذقية كل يوم ــ حتى اعود اليها واليكم جميعا مكللا بالغار فرحا بالنصر المبين . »

فقامت اليه امه تعانقه وتقبله قبلات الاعجاب ، داعية اياه واخته الى النوم فقد انتصف الليل او كاد .... وذهبت هي الى فراشها ولكنها لم تنم تلك الليلة الا غرارا نوما متقطعا مليئا بالاحلام المزعجة.

★ ★

امتلأت سماء (بورسعيد) بالطائرات يكاد ازيزها يصم الآذان، متجهة الى البر المصرى وعلى حين غرة فتحت ابوابها وقذفت برجال المظلات المسلحين بمدافعهم الرشاشة ليهبطوا على الارض رويدا ... وقد امتلأ الجو بمظلاتهم تلتمع فى اشعة الشمس وتلعب بها الرياح يمينا

وشمالا كأنها طيور بيض ٠

ونفر سكان المدينة الباسلة بجموعهم الحاشدة نساء ورجالا وشيبا وشبانا ، حتى الاطفال الصغار كل يحمل ما تيسر له من سلاح ، هذا يحمل بندقيته وذلك يحمل سيفه او سكينه واخر فأسه او محراثه وهاجموا العلوج النازلة عليهم من الجو ، قبل ان يسترد هؤلاء انفاسهم وقبل ان تعود اليهم عقولهم التي لعبت بها الرياح فى اعالى الجو ٠ فقضوا عليهم جميعا افنوهم عن بكرة ابيهم ٠ وانتصر الابطال العرب وعادوا يهتفون :

« الله اكبر ٠٠٠٠ الله اكبر ٠٠٠٠ والنصر للعرب ٠ »

وتناقلت اسلاك البرق نبأ الانتصارات الباهرة ٠ ودهش الناس في اقطار العالم المختلفة ٠ واعاد المعتدون التجربة واصاب الوجبة الثانية ما أصاب الاولى ٠ وترددت فى اذهان المواطنين الآية الكريمة :

(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) ٠

واخيرا عمد الخونة الماكرون الى الحيلة والخداع ٠ واستعملوا الدهاء والمكر ، وقذفوا بمظلات تحمل اكياسا من الرمل بدل الجنود، وحين هاجمها المدافعون البواسل امطرتهم الطائرات برشاشاتها وقنابلها تحصد جموعهم حصدا ، ولكن الابطال ثبتوا فى ميدان المعركة لم يستسلموا على الرغم من عظم الخسائر التى تكبدوها وعمدت بريطانيا وفرنسا الى ارسال اساطيلها البحرية لتقذف بحممها ساحل ارض الكنانة دونما رحمة ، وتقدمت البارجة الفرنسية الكبرى لتنسف الميناء من اساسه فتجعله قاعا صفصفا وبينما هى في طريقها الى غايتها الدنيئة اذا بالمعجزة تحدث على ايدى ثلاثة من الشباب السوريين ٠ جاؤا من هناك متطوعين ليلبوا نداء الوطن ٠٠٠ وطن العرب الاكبر ٠٠ وركبوا زوارقهم الصغيرة وهرعوا الى ميدان المعركة ليقاتلوا البارجة الفرنسية الكبرى ٠ وليمنعوها من تدمير الميناء المصرية الحبيبة ٠

وقذفوها بالطوربيد غير مرة فلم ينالوا منها منالا ، ونظر الشاب الجميل الذى ترك امه واخته تذرفان الدمع السخين على فراقه، وخطيبته تنتظره كل يوم على رصيف الميناء تتعجل اوبته ، نظر هذا الشاب الى رفيقيه وقال :

« يجب ان يصيب هذا الطوربيد من البارجة مقتلا ، يجب ان نغرقها ، يجب ان تغوص في قاع البحر بركابها بزبانيتها الذين جاؤا يرسلون الدمار الى بلادنا دون ذنب جنيناه يجب ان يسمع العالم كله ان دولة عربية صغيرة انتصرت على دولتين من الدول العظمى وعلى ربيبتها المسخ اسرائيل • يجب ان نهاجمها هجوما انتحاريا فيتوجه إحدنا بالطوربيد حتى يقترب من البارجة فيقذفها لينفجر فى وسطها• »

ونظر الثلاثة بعضهم الى بعض صامتين ثم قال احدهم :

« لنقترع •• اينا يقوم بالمخاطرة •»

فقال الشاب :

« ان الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك •••• ان البارجة دنت ، والثمرة نضجت وآن قطافها واني لصاحبها • »

وتوجه بالطوربيد نحو البارجة التى كانت تتهادى فى سيرها على الامواج الصاخبة واقترب منها وامسك الاخران انفاسهما هلعا ، وتوقف الزمن لحظة ، واخترق الطوربيد هيكل البارجة العظيمة وشقها الى نصفين وغاصت في البحر ، والقى بحارتها بأنفسهم في اليم فكانوا من المغرقين •

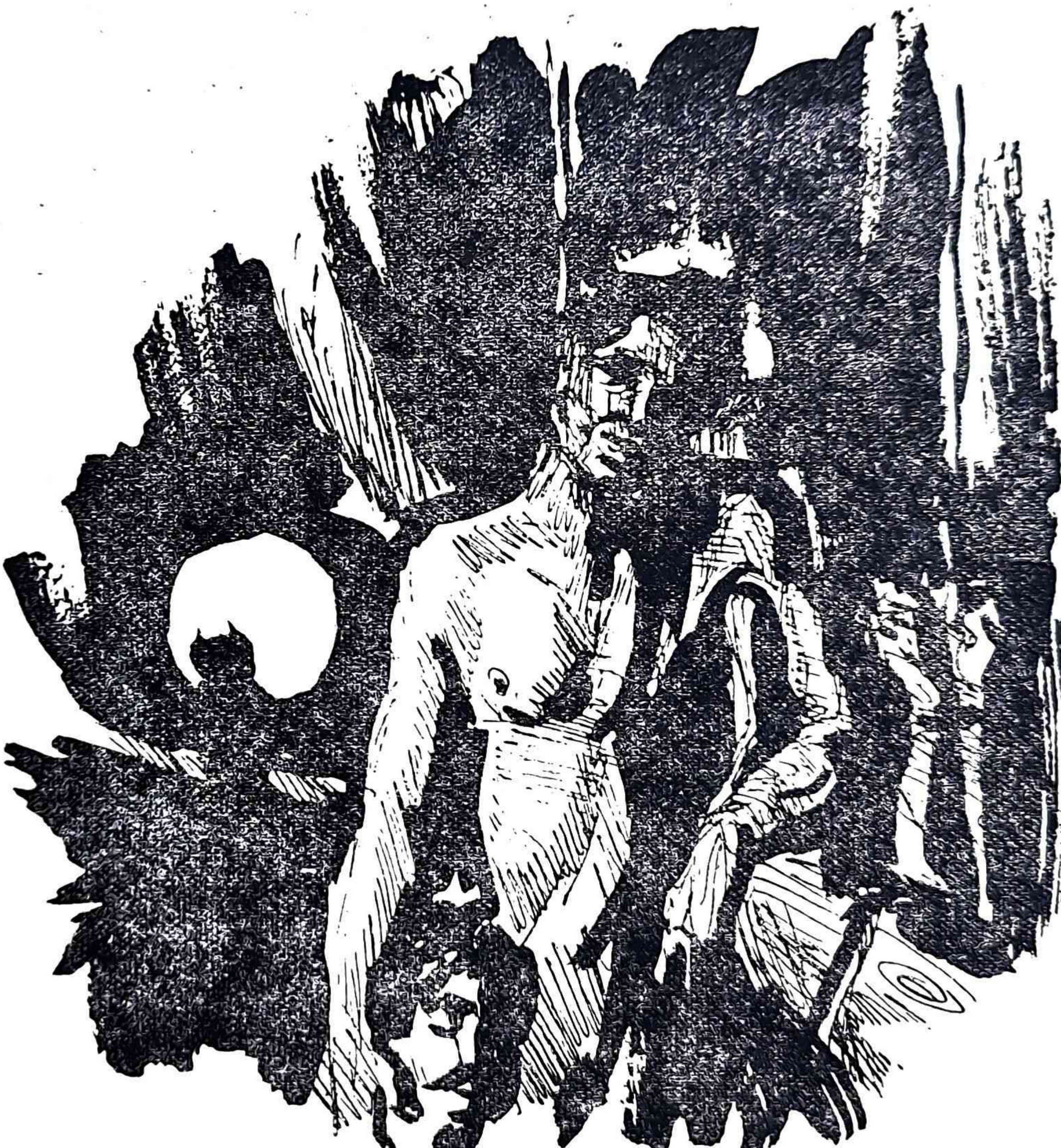
واستشهد بطل عربي اسمه (جول جمال) ••• اذ تغلبت عروبته على مسيحيته وبرهن على ان الدين لله والوطن للجميع ••• واثبت بعمله ان العرب بتضامنهم وتراحمهم وتوادهم مثلهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى •

وبقيت خطيبة جول جمال تقف كل يــوم على الرصيف في ميناء اللاذقيــة تنظر الى البحـر . ساعات ، مستمطرة شــآبيب الرحمة على شهيدها البطل الذى لن يعود .

وبقيت امه يحج اليها الناس من كل مكان . يقدمون لها التهاني على هذه البطولة النادرة التي قام بها ولدها .. واخذت تنهال عليهـا ارفع الاوسمة واغلى الهدايا من رجال الدولة العربيــة الكبرى . وهي صابرة صامدة . لا تشكو ولا تنوح بل تحمـد الله على ما أصابها .. شأنها شأن اختها العربية . التى قالت يوم استشــهد اولادها الاربعة فى صدر الاسلام ...

« الحمد لله الذى شرفني بقتلهم » .

تلك هي الخنساء وهذه ام جول جمال .. والتاريخ يعيد نفســه كل حين .



رجعي من كركوك

كنت اعرفه منذ زمن بعيد ، يوم كنا زميلين في احدى وحدات الجيش المرابطة في كركوك من اعمال العراق ، تلك المدينة الهادئة التي كانت مؤمنة بربها ، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا فكفر الفوضويون بأنعم الله ، فأذاقوا اهلها من صنوف العذاب الوانا ، واسالوا من دمائهم انهارا ، ودفنوهم احياء فانقلب نعيمهم بوئسا وسعادتهم شقاءا بين عشية وضحاها .

وقد قدر لنا ان نفترق انا وصاحبي ذاك ، وان تنقطع بيننا الرسائل، وان تفرق بيننا الاحداث فلا يعرف احدنا ما حل بصاحبه ، حتى كان يوم امس واذا انا اسمع ــ وانا اسير في شارع الرشيد صوتا يناديني باسمي مجردا من هذه الالقاب التي اعتاد الناس اطلاقها على معارفهم الذين لم تصل العلاقة بينهم الى حد رفع الكلفة .

فالتفت الى مصدر الصوت ، فرأيت رجلا يشير اليّ بيده ، وقد اطلق لحيته التي وخطها الشيب حتى كادت تخفي رباط رقبته الاسود وتقدمت منه فمد لي يداً مرتعشة ومددت اليه يدي مصافحا وانا اعجب لما بدا من ضعفه وهزاله ومن عبوسه وتقطيبه وكنت أعرف منه المرح والبهجة ولا ازال اذكر ايامنا (الحلوة) في عهدنا البعيد ، وكيف كان حديثه ممتعا ونكاته اللاذعة ينثرها ذات اليمين وذات الشمال ورنين ضحكاته الصادرة من اعماق قلبه تملأ «الثوى» الذي اعتدنا الجلوس فيه بعد العودة من ساحة التدريب العسكري .

وقلت له :

« لشدما تغيرت يا صاحبي ، لقد كدت انكرك لولا بقية من بريق عينيك ولولا هذه الابتسامة التي عرفت بها منذ صباك وان كانت مشوبة بالالم كما يبدو لي اليوم » .

قال :

« نعم ، لقد غيرتني صروف الزمان ، وأبلى شبابي كر الجديدين وزادت الحادثة الاخيرة في تحطيم اعصابي فكانت ضغثا على إبالة » .

قلت :

« وأية حادثة تعني يا صاحبي ؟؟ » .

قال :

« الم تسمع بما حل بسكان كركوك ؟ الا تعلم اني اتخذت كركوك لي مستقرا بعد احالتي على المعاش فهي موطني الاول ومسقط رأسي » .

قلت متضاحكا :

« انك اذن لمن (التركمانين) الرجعيين كما يسميكم الفوضويون»

قال :

« نعم وقد اصابني من قسوة هؤلاء ما لو قصصت عليك لآلمتك»

وغاضت الابتسامة من وجهي وطفقت انظر اليه باهتا وانا ارى الدموع تنهل على خديه ولحيته وبدأ يروى حديثه الذي يبعث الشجن بصوت لا اكاد اسمعه قائلا :

« بعدا حالتي على المعاش عكفت على قضاء ما تبقى من حياتي في العبادة وعمل الخير والاحسان الى الناس والتزود للحياة الآخرة فان خير الزاد التقوى ، وآليت على نفسي ان اربي اولادي تربية دينية وتنشئتهم نشأة صالحة لأجعل منهم مواطنين طيبين ، غارسا في نفوسهم حب وطنهم وشعبهم فكنت ابدأ يومي بالنهوض مع الفجر لاستقبال القبلة فأودى فريضة الصبح ، ثم انزل الى حديقة الدار فاشتغل فيها حتى يرتفع الضحى ، فأجلس الى المائدة لاتناول فطورى مع اهل بيتي ثم اغادر الدار الى بناية جمعية المحاربين القدماء التي شرفني زملائي

بانتخابي رئيسا لها في كركوك • حيث انظر في بعض الشؤون • او اتحدث الى اخواني او اطالع الصحف حتى يحين وقت صلاة الظهر فاعود الى الدار لاداء الفريضة فيها او اعرج في طريقي على احد المساجد فأودي صلاة الجماعة قبل ان انقلب الى داري لتناول وجبة الغداء •

اما في المساء فاجلس بعد صلاة العشـــاء الى اولادي اذاكرهم دروسهم او اتحدث الى زوجتي او بعض الزائرين من اقاربي حتى يازف وقت النوم •

وحين كبرت ابنتاي زوجتهما من شقيقين يمتان الي بصلة قربى يعمل احدهما ضابطا في الجيش والاخر طبيبا عسكريا •

وعاش الكل في كنفي وتحت سقف داري القوراء نتناول طعامنـا على مائدة واحدة ونقضي سهراتنا في احاديث طلية او لهو بريء •• او نستقبل بعض الزائرين من ذوي قربانا ، راغدين في عيش ناعم ترفرف علينا اجنحة السعادة ويسود بيننا السلام والمحبة يحف بنا الخير والبركة، في حياة رتيبة هادئة حتى اتانا هادمو اللذات ومفرقوا الجماعات فداهمونا في ليلة النصف من تموز عام تسع وخمسين وتسعمائة بعـد الالف •

واليك تفصيل ما حدث من هول تلك الفاجعة وليس من سمع كمن راى•

كان صهري الاول ضابطا شجاعا ، تقيا مؤمنا بالله وبرسوله كان مثالا صادقا للرجولة والايمان والتضحية والاخلاص والوطنية فلما راى بعض من لا خلاق لهم يريدون بوطنه شرا قبل انبثاق فجر الرابع عشر من تموز طالب باعفائه من الخدمة في الجيش فاتيح له ذلك فانصـرف الى العمل الحر حتى قامت الثورة فكان من اول المؤيدين لها ، المضحين من اجلها ، كان يعتقد ان الاقليات في العراق يجب ان تنصهر وتذوب في بودقة الوحدة الوطنية •

ولم يرق هذا للشيوعيين فبذلوا ما وسعهم من جهد حتى تم اعتقاله مع رهط من المؤمنين بقوميتهم فلقي في معتقله من التنكيل والعذاب ما الله عليم ولكنه بقي ثابتا صابرا حتى صدر امر عبدالكريم بالاـفراج

عنه وعن امثاله قبيل بدء الاحتفال بالعيد الاول لذكرى الثورة المجيدة.

وامتلأت دارنا على رحبها بالاهل والاقربين والضيوف للسلام عليه والترحيب بمقدمه فقد كان محبا لهم محبوبا من الجميع يعطف على صغيرهم ويوقر كبيرهم وبعد ان استراح قليلا خرج والكل يتبعونه لاداء واجب التهيئو بالاحتفال بهذه الذكرى المحببة الى نفوسهم وقد بذل الاموال من جيبه الخاص ونصب ورهطه من التركمانيين الاقواس فى الشوارع واقاموا الزينات وساروا فى الطرقات يوزعون الهدايا والحلويات على عابرى السبيل بهذه المناسبة السعيدة وقد تهللت وجوههم فرحا بحلول هذا العيد الوطنى الذى آلوا على انفسهم ان يحتفلوا به احتفالا رائعا يعبر عن مشاعرهم الصادقة واحاسيسهم النبيلة للجمهورية وما دروا ان الفوضويين يبيتون لهم شرا ، وقد ابوا الا ان يقلبوا افراحهم الى مآتم وفواجع وان يقرنوا بذكراهما المباركة ذكرى افظع مجزرة واروع مأساة شهدتها مدينة كركوك الصابرة فى تاريخها

وحل اليوم الموعود وخرج النساء والاطفال ضمن من خرجوا للمشاركة فى الاحتفال ومشاهدة المواكب (التركمانية) التى زخرت بها شوارع المدينة وهى تهتف للوحدة وللجمهورية .

وكنت مع نفر من اصحابى فى الدار حين سمعنا صوت اطلاقات نارية ورأيت الناس تركض فى الطريق وقد انتابها رعب شديد وسالت ما الخبر ؟؟ فاجاب البعض :؟

« لقد هاجم الفوضويون مقهى ١٤ تموز وقتلوا صاحبه وهم يسحلونه الآن فى الشوارع ».

فخرجنا نجوب الشوارع بحثا عن نسائنا واطفالنا فراينا الهرج والمرج قد ساد المدينة وامتلأت شوارعها بالجثث وتكدست على بلاطها الاحذية النسائية والعباءات والأمتعة المختلفة ، وعلا صراخ النسوة الهاربات وهن يحملن اطفالهن وقد اخذ منهن الذعر والهلع كل مأخذ وكأن القيامة قد قامت والساعة دنت ، ويوم الحشر الذى ورد ذكره فى

الكتب المقدسة قد حان .

عدنا الى دارنا وقد حل المساء او كاد ، هربا من الموت والموت يلاحقنا فى كل خطوة فوجدنا آل بيتنا جميعا قد تحلقوا حول رجـل طاعن فى السن هو خال اولادى وهو يطمئنهم ويؤكد لهم ان الجيش سيتدخل لحفظ الامن وحماية ارواح الناس وبينا نحن كذلك اذ اخذت احدى السيارات تجوب الشوارع معلنة بواسطة مكبرات الصوت حظر التجول فى البلدة ليلا ونهارا طالبة من الاهلين الالتجـاء الى دورهم وعدم مغادرتها حتى اشعار اخر .

فتنفسنا الصعداء فرحين بما تم من سيطرة على الموقف ، وانتهاء لحالة الفوضى وحقن للدماء ولكن فألنا خاب وأسفاه .. فلم يكن منع التجول هذا الا للتركمانيين المساكين اما الفوضويون ... فكانـوا يجولون بملء حريتهم يعيثون فى المدينة فسادا يقتلون الناس ويكسرون الدكاكين والمحال التجارية وينهبون الاموال ويحرقون البيوت بمن فيها من السكان الآمنين وكنا نسمع ضجيجهم بآذاننا طوال الليـل ونحن مشفقون مما ينتظرنا واطفالنا من مصير مجهول .

وحوالي منتصف الليل وقفت سيارة اهلية امام باب دارنا ونـزل بعض جنود الانضباط والمقاومين الشعبيين واشخاص آخرون يرتـدون الملابس الكردية ، وقد تسلحوا بمختلف الاسلحة الاتوماتيكية وطلبوا حضور صهرى الضابط الشجاع ، فخرجت اليهم فرأيتهم قد تفرقوا فى انحاء مختلفة من حديقة الدار فى وضع مريب ، وحاولت مناقشتهم لأنهم كانوا مصممين على تنفيذ مطلبهم ، فقد تصدى لي ، احدهم وهو ضابط فى الجيش اعرفه جيدا ، واكد لي ان القائد يطلب حضوره فأسقط فى يدنا جميعا وخرج المسكين معهم ليلقى مصيره المحتوم ويموت على ابشع صورة كما علمنا فى اليوم الثانى .

كان المجرمون قـد تحلقوا حوله وهم يحملون الهراوات والواحا من الخشب فيضربه احدهم على جانب راسه الايمن ويعاجله الآخـر

بضربة حتى يسيل دمه فيركض الى الجهة المقابلة فيستقبله ثالث بضربة اخرى وهكذا بقي يدور وسط الدائرة وهو يصيح .. « اتركوني من اجل الله .... »

فيجيبونه وهم يتضاحكون ..

« ان الله في اجازة » ..

فيصرخ فيهم :

« ارحموني بحياة الزعيم » ..

فيقولون :

(الزعيم في بغداد)

وهكذا حتى سقط مضرجاً بدمه ، فربط بحبل متين وسحل وهو حي الى ان قضى شهيدا بعد زمن طويل ... فعلق على فرع شجرة بقرب مركز القيادة .

وعاد الزبانية في اليوم التالي بعد ان سيطر الجيش على المدينة وهاجمونا نهارا جهارا فاستباحوا دارنا ونهبوا اثاثها وقتلوا صهري الثاني الطبيب الذي قضى شبابه في خدمة الجيش فكرس حياته لخدمة المرضى في المستشفى العسكري ، دون ان يتدخل في السياسة ، ثم نزلوا الى البدروم فقتلوا خال اولادي الشيخ الكبير على مرأى من الاطفال وسحلوا ولدي الفتى بالحبال وهو حي ومزقوا ملابس النساء وقتلوا طفلا رضيعا على صدر أمه وعاثوا في بيوت الحي فسادا . فقتلوا في احدى الدور امرأة ثم قطعوا ثديها ووضعوه في فم رضيعها بعد ان قطعوا ذراعه وهو حي .

ولا ادري كيف نجوت انا من القتل والسحل اذ كنت اعيش في دوامة لا اعرف كيف جرت كل هذه المحن والمصائب وكأنني كنت ارى فيلما سينمائيا مرعبا او كابوسا مزعجا .

وجاء حوالى الظهر عقيد في الجيش وهو خائف يترقب يريد ان يعثر على مخبأ يختفي فيه لآن المناضلين الشرفاء قرروا سحله هو ايضا ،

واخبرنا بحوادث تقشعر لهولها الابدان ... وخرجت ابنتي الكبرى تريد ان تعثر على جثة زوجها .. ورأت احد الضباط فاستغاثت به واخبرته انها زوجة الشهيد فلان ... فضحك منها ساخرا وقال :

« ... لا تخافي ... فقد حفظناه لك سالما بالتمام والكمال » .

قالت له :

« انا اعلم انكم قتلتموه ... فسلموا اليّ جثته بحق الله » .

قال :

« اما زوجك فلا اسلم جثته » .

وتركها ودخل غرفته الرسمية ودخلت وراءه وهي تتوسل اليه ان يرحم دموعها فما راعها الا رؤية الحبال والاسلحة معلقة على الجدران وهي ملطخة بالدم . وخرجت هاربة لا تلوى على شيء . تسير على غير هدى ... فمرت على المستشفيات والمقاهي والدوائر وهي تنوح صارخة .

يا رب ... ماذا جنينا لنلقى كل هذا العذاب ..

وقادتها قدماها الى خارج المدينة فرأت ويا للهول .. رأت الآلات الضخمة (الحفارات) تجرف الاموات والاحياء ايضا فتدفنهم وهم يئنون فتهيل عليهم التراب .

رباه .... من اية ملة هؤلاء ومن اى دين ؟؟.. اهؤلاء من البشر ؟ كيف يسمون انفسهم (انصار السلام) وهم يقتلعون رقاب الاطفال الصغار ..

ويسحلون الناس الابرياء بالحبال ... باسم المحافظة على السلام ... ويسرقون ... وينهبون ويحرقون ... ويبقرون بطون الحوامل ... فينتزعون الأجنة ويسحقونها بالاحذية ويدقون مسمارا فى عذراء موصلية قومية ... بعد ان يشدوها الى ساق شجرة .. ويربطون ساقي امرأة في سيارتين تسيران في اتجاهين متضادين فتنشطر الجثة الى شطرين .. ويتبولون فى فم جريح يطلب الماء .. اين ما صنعه هولاكو

فی بغداد والصهاينة فی ديرياسين من صنع هؤلاء ؟..

وفی اليوم الثالث هرب التركمان كلهم الى القلعة الرابضة فوق الجبل فتحصنوا بها فقرر المجرمون ضربها بالصواريخ ... ونسفها بمن فيها من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال .. وتلقى سكانها انـذارا بوجوب تسليم انفسهم والا فسيبدأ القصف بعد ست ساعات من توجيه الانذار .. لقد كانت مدة الانذار اقل من المـدة التی عينها الانكليز والفرنسيون ابان العدوان الثلاثي على بور سعيد .

وفكر المساكين فی أمرهم . شاور بعضهم بعضا ، وقال قائلهم .

« ان الموت ضربا بالصواريخ لافضل الف مرة من الموت البطيء سحلا بالحبال » ..

وتمثل احدهم بقول الشاعر :

واذا لم يكن من الموت بد … فمن العار ان تموت جبانا

وقبل انتهاء مدة الانذار بدقائق وصلت قطعات الجيش القادمة . من بغداد واحتلت المدينة واستسلمت القوة المتمردة وسيق ضـباطها والمجرمون من افراد المقاومة الشعبية مخفورين الى العاصمة ووصلت لجنة للتحقيق فی هذه الاعمال الفوضوية ولكنها لم تعثر على احد من شهود العيان الا النزر القليل فقد هاجر الالوف من المدينة الى بغـداد والمدن المجاورة هربا من بدعة (السحل) هذه البدعة التی لم يسمع بها سكان العراق منذ الاف السنين ولابد انها وفدت علينا ضمن المبادیء الوافدة حديثا من الاقطار التی يدين اهلها بالزندقة والالحاد .

ووصلت الى بغداد فيمن وفد اليها من الهاربين من الموت وقابلت « الزعيم الاوحد » شاكيا مستصرخا فوعدنی بان المجرمين سيشنقون في نفس المكان الذی ارتكبوا فيه جرائمهم البشعة .

فقلت له :

يا سيدی الزعيم .. اننی لن احلق لحيتی ولن اترك ملابس الحداد

حتى اشفى غليلى برؤية المجرمين معلقين على اعواد المشانق .. ولكن الايام مرت والزعيم الشعوبى قابع فى مخبئه .. يتلذذ برؤية الدماء الزكية تراق على تربة الوطن ... دون ان يحرك ساكنا لوقف هذه المجازر .. ولم يعلق المجرمين فى نفس المكان الذى أرتكبوا فيه جرائمهم ... كما وعدنى ..

ورأيتك اليوم فشعرت بحاجتى الى الشكوى لصديق قديم مثلك فقد صدق الشاعر حيث يقول :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك او يسليك او يتوجع

هذه قصتى اتحدث بها اليك لعلك تكتبها بقلمك .. فتنشرها على الناس ، انها قصتى المؤلمة قصة رجعى من كركوك .

ثم رأيت صديقي هذا فى اليوم التالى لثورة ١٤ رمضان المجيدة وقد حلق لحيته وتزين بأحسن زينة يدور فى الشوارع يوزع الحلوى بين الناس ودموعه تنهمر ولكنها دموع الفرح ...



جواسيس

كنت فى العاشرة من عمرى ، حين قرر والدى الانتقال بنا جميعا من بغداد الى مزرعته المنبسطة فى ناحية الدورة ، متخذين من البناية التى شيدها هناك من الطين و « اللبن » سكنا لنا ، ولم تكن وسائط النقل الحالية معروفة في ذلك الزمن ، فكانت الوسيلة الوحيدة للانتقال براً هى الخيل والحمير التى خلقها الله للناس ليركبوها ولتحمل اثقالهم الى بلد لم يكونوا بالغيه الا بشق الانفس ، او ليتخذوا الاولى زينة ، واداة للهو البرىء حينا ، وللكسب الحرام في ساحات السبلق في كثير من الاحيان ..

واما الوسائط النهرية فكان منها السفن البخارية والمراكب الشراعية التى تنقل الناس والثمرات بين بغداد والبصرة ، ومنها القوارب المعروفة في زمننا هذا ، وهناك واسطة اخرى غريبة الشكل فهى دائرية مجوفة تصنع من الخوص او القصب وتطلى بالقار من الداخل والخارج ، لحفظها من تسرب الماء الى داخلها ، وفتحتها تبدأ ضيقة قليلا ثم تتسع رويدا ثم تضيق حتى تصل الى القرارة حيث يقبع المسافرون في داخلها وهى تدور بهم ذات اليمين وذات الشمال تبعا لتجذيف صاحبها الذى يخبط الماء بمجدافه الوحيد الى الجهة اليمنى آونة والى الجهة اليسرى تارة اخرى ، وهى تجرى بهم فى حركة دائرية دائمة .

وقد كانت (القفة) وهذا هو اسمها او (الحصان) اذا كانت كبيرة الحجم ـ الواسطة التى ينتقل بها الناس بين ضفتى نهر دجلة حين ينقطع الجسر الخشب المهلهل الوحيد ، لتمر المراكب والسفن الشراعية عبره ، أو حين تعصف الرياح والاعاصير بذلك الجسر المسكين فتقطعه ،

وتجرف الامواج قطعة منه وعليها بعض عابرى السبيل فترمى بهم الى حيث ترتطم بما يصادفها من عوارض في اقصى جنوبى بغداد •

استأجر لنا والدى واحدة من تلك (القفف) الكبيرة وحشرنا فيها مع الضرورى من متاعنا ، وكنا بضع نساء وصبايا ورجلا واحدا هو شقيقى الاكبر ، وكنت الصبى الوحيد بينهم •

وسارت بنا (القفة) باسم الله مجراها منحدرة فى مجرى النهر الذى يتلوى فى تلك الناحية كثيرا ويدور قبل ان يصل الى (الدورة) التى اخذ اسمها من هذا الدوران والالتواء مما يطيل الطريق على المسافر •

واما والدى نفسه فقد امتطى قبيل الغروب ظهر فرسه الاصيلة التى يعتز بها ، وقد عرف رحمه الله بفروسيته وشجاعته فكان اشبه شىء بفرسان القرن التاسع عشر (الشفالية) فهو على طيبة قلبه عصبى المزاج حاد الطبع ، سريع الغضب ، سريع الرضا ، جرىء القلب ، لا يهاب احدا ، ولا يخشى الا الله ، ولاعجب فانما يخشى الله من عباده العلماء، وقد جمع هو بين العلم والفروسية •

وصل والدى الى الدار التى ينبغى ان يجدنا فيها حسب تقديره منذ وقت طويل ، ولكنه وجد الدار خالية خاوية ، كأن لم تمسسها يد او يدخلها داخل ، منذ امد طويل ، وصرخ صرخة مدوية ، اجتمع لسماعها الاعراب والفلاحون الذين كانوا يسكنون اطراف الدار ، واخذوا يواسونه ويهونون عليه ، فقد كان لديهم اثيرا ، وعليهم محسنا ، ولهم ناصحا امينا ، وهو لا يدرى ماذا يقول ، فقد انعقد لسانه ، وطفر الدمع الى عينيه ، فلوى عنان فرسه وعاد من حيث اتى ، دون ان ينزل عن ظهرها ليريحها او يريح نفسه ساعة من زمان بل لكزها بقدميه لتطير فتسابق الريح فقد رجح ان (القفة) قد غرقت براكبيها فما اسرع ما تغرق القفف اذا انقلبت فتهوى بمن فيها الى قاع النهر دون ان تتاح لهم فرصة للحياة بعكس القوارب فانها تطفو على سطح الماء فى حالة

انقلابها فينجو كثير ممن قدر الله لهم النجاة .

* • *

كان الرجلان يحثان جواديهما على المسير فى الطريق المحاذى لنهر دجلة ، والذى يقترب من النهر حينا حتى يكاد السائر فيه يلامس الماء، ويبتعد احيانا عن النهر حتى لا يرى المستطرق شيئا من النهر ابدا ، تمنع عنه الرؤية هذه البساتين المنتشرة على ساحله والقصـور المتناثرة هنا وهناك التى تعود لكبار المزارعين او الاثرياء من اهل بغداد القديمة .

اما احد الرجلين فكان يحمل رتبة « باشجاوش » رئيس عرفاء فى « الجاندرمة » او الدرك واما الآخر فالدركى الذى يرافقه وهو مسلح بالبندقية وكان كلاهما قد لاحظ تلك (القفة) التى تحمل عائلة بغدادية استصحبت متاعها الضرورى ، وكانت الحرب العالمية الاولى قد اوشكت ان تبلغ غايتها وقد تحرج وضع الجيش العثمانى الذى يقاتل الانكليز دفاعا عن بغداد عاصمة العراق اليوم ، واحدى المدن المهمة التى تمر منها سكة حديد برلين ــ بغداد ــ التى اخذ امتيازها الالمـان ، وكانت من اسباب اشتعال الحرب العالمية الاولى .. فلابد اذن كما تصور الرجلان، ان افراد هذه العائلة من الجواسيس الخطرين ، وقد ازمعوا على الهرب الى سادتهم الانكليز ، ولابد من القبض عليهم قبل ان يبتعد بهم التيار فلا يمكن اللحاق بهم ، خاصة وقد اوشك الطريق ان يبتعد عن مجرى النهر كثيرا بحيث يتعذر الاتصال بهم بعد ذلك .

وقد قضى الرجلان وقتا غير قليل وهما يتتبعان مسير (القفـة) ويصرخان بركابها ان يقتربوا من الشاطىء وهؤلاء لاهون عنهما بالتفرج على المناظر والاستماع الى ثرثرة الصغار منهم ، ولم ينتبهوا الى صراخ الرجلين وانذارهما باطلاق الرصاص عليهم الا فى اللحظة الاخيرة ؛ حين ابتعدوا عن الساحل الايسر لدجلة رويدا تبعا لتيار الماء .

وحين شعر صاحب القفة بما كان يتهدده والركاب الآخرين مـن خطر اسرع بالدنو من الشاطىء الايمن امتثالا للاوامر ، وكان يرتجف

ذعرا وهلعا مما سيلقاه على ايدى الرجلين ، من قسوة عرف بها رجال « الجاندرمة » في ذلك العهد البائد .

وخرجنا الى الساحل جميعا وقد اخذنا الدهش والعجب فما هالنى الا رؤية أخى الاكبر وكان يحمل يومذاك رتبة عريف (جاوش) فى الجيش العثمانى وهو يقف امام رجل (الجاندرمة) وقفه الاستعداد مؤديا التحية العسكرية كاحسن ما يؤديها الجندى المفروض عليه الطاعة لرؤسائه واذا بهذا يأمر بسوقنا الى بغداد سيرا على الاقدام ، نساءا واطفالا فى طريق مترب ردىء تحت وهج الشمس المحرقة . يتقدمنا شقيقى الاكبر الذى تحمل من توبيخ الرجل ما لم اكن اتصوره دون ان ينبس ببنت شفة وقد وصلنا مخفرا يقع فى جانب الكرخ من بغداد كان يطلق عليه فى ذلك العهد اسم (القلغ) بضم القاف واللام المشددة بعد ان اخذ التعب منا مأخذه ، واضر بنا الجوع وكاد الظمأ يودى بنا وقد اتسخت اقدام شقيقاتي ووالدتى وامتلأت احذيتهن بالتراب الكثيف .

وادخل الجميع فى الموقف ، وبدأ التحقيق معهن واحدة بعد الاخرى على انفراد بتهمة الجاسوسية وقد كدت انشق من الغيظ من الموقف المتخاذل الذى وقفه اخى فى الوقت الذى كنت اعلم فيه ان الجندى البسيط فى الجيش العثمانى القديم يكاد ياتى بالمعجزات ، دون ان يخشى شيئا من عقوبة رؤسائه خاصة اذا كان على الحق ، وهو من الجيش وهذان من (الجاندرمة) ولكن الله سبحانه وتعالى قد صبه في قالب يختلف كل الاختلاف عن القالب الذى صب فيه والدى ، بل انهما على طرفى نقيض فى كل شيء ، وكنت اعتقد جازما أن لو علم والدى بتفاصيل ما نالنا على يدي هذا الرجل من سوء ـ لقضى عليه في الحال ودون تردد وليكن بعده ما يكون ... ولكن الله سلم .

وجاء عمى حين انهى اليه الخبر الى المخفر فطردوه لانه لم يكن من (الافندية) واخيرا تمكنت انا من الافلات بالنظر لعدم تشديدهم

الرقابة عليّ لصغر سنى • وهرعت الى المقدم (البكباشــى) الذى يشتغل والدى فى دائرته وقد فاتنى ان اذكر لك ان والدى كان (باش امام) فى الجيش العثمانى وكانت له مكانة ممتازة لدى كبار القــادة و (الباشوات) لغزارة علمه ولشجاعته وشخصيته القويــة •• وانتهى الامر باطلاق سراحنا جميعا بورقة صغيرة كتبها المقدم التركى الاصل الى آمر المخفر ، واعتبرت القضية منتهية •

واما والدى فقد عاد الى بغداد على فرسه الاصيل وهو يشهــق بالبكاء طول الطريق ، وحين وصل الدار فى الهزيع الاول من الليــل ، قصصنا عليه القصة محرفة بعض الشيء ، خشية قيامه بعمل يثأر فيه من (الرجل) فيحصل ما يعود علينا بالضرر جميعا ، ولكنه لم ينس ان يصب جام غضبه على ولده الاكبر ، فيؤدبه بما تيسر من (وســائل) التأديب كما اعتاد ان يفعل معه دائما ، بالرغم من بلوغه مبلغ الرجال •



من وحي الف ليلة وليلة

كان فى قديم الزمان رجل اسمه (كريم) يعيش فى دار صغيرة بجوار قصر التاجر الكبير الغنى ، فى مدينة (كفرداد) الواقعة على حدود المملكة المترامية الاطراف التى يحكمها الامير (بهرام) الشجاع

وكان هذا الرجل (كريم) كريم النفس سخى اليد يقدم لضيوفه كل مساء مما رزقه الله على قلته ولا يفكر الا فى يومه وينفق كل ما فى يده من مال كثيرا وقليل على الاصحاب الذين يفدون الى المدينة من الغرباء والفقراء مجتازين حدود المملكة سيرا على (الاقدام) للتبرك بزيارة معبد المدينة الشهير .

وكان جاره التاجر الثرى – على عكس ذلك – بخيلا شديد البخل فكان يقتر على اهله فلا يصيبهم من الطعام الا اقله ، اما اذا وقف على باب داره سائل او طالب حاجة فانه ينهره ويطرده شر طردة فكان بين الجارين صراع لا ينتهى لهذا السبب كل منهما يكره صاحبه كرها شديدا اما (كريم) فكان سعيدا جدا قد اتخذ من عمله الطيب (هواية) يقضي فيها ايامه ولياليه متمتعا ملتذا بما يرتسم على وجوه الطارقين لبابه من آثار السعادة حين يقوم بخدمتهم فلا يخطر فى باله جاره اللئيم الا نادرا واما هذا فقد كاد ينشق صدره من الغيظ وهو يرى الناس متكأكئين على باب جاره ينالون منه كل رعاية وحنان ثم يمرون بقصره فلا يلتفتون اليه الا نادرا ومنهم من يهز رأسه اسفا او يبدى حركة من يده تدل على التهديد او الكره الشديد .

وبدأ الجار الثرى يكيد لجاره الكريم الفقير بماله والغني بنفسه ،

واخذ يكيد له عند حاكم المدينة،متهما اياه بشتى التهم،ناسبا اليه مختلف الجرائم ـ باهتا اياه بالكفر والصبؤ فهو لم يدخل المعبد المقدس الذى تحج اليه الناس من اطراف المعمورة في حياته ولم يقدم فروض الطاعة والزيارة للحاكم اسوة بسائر الرعية وزيادة على ذلك فقد اخذ يبث الدعاوة لنفسه بين الفقراء والغرباء الذين يدخلون المدينة يحرضهم على حاكمهم ، لينتقضوا عليه يوما فينصبوه حاكما على مدينتهم بدلا منه ، وهكذا استمر على هذه الوشايات حتى اغضب عليه الحاكم اخيرا فامر بنفيه الى خارج المدينة .

وخرج المسكين خائفا يترقب ماشيا على قدميه لا يحمل من المال الا اقله ، ومن الزاد الا ما يكفيه ليومه ذاك ، ويدخل مدينة (شاماز) قبل الغروب فيأوى الى ظل شجرة ليرتاح من وعثاء السفر وليفكر في امره ، وفي زوجته التي تركها وحيدة في مدينة (كفرداد) .... تحت امر حاكم المدينة القاسي وجاره الغنى الحقود ويشاء ربك ان يمر في تلك الساعة رجل من اهل المدينة طالما شمله هذا برعايته وعطفه فيعرفه وحين يقص عليه القصص يأخذه الى ذي نفوذ كلمة لدى حاكم المدينة يدعى (ولي اغا) وهو ثرى واسع الثراء يملك اكثر من عشرين قرية في ضواحى (شاماز) فيقدم له واحدة من تلك القرى التي يدر خراجها المال الوفير ، ولكنه يرفض هذا العرض ويطلب الى الرجل العظيم ان يقبله ضيفا اياما معدودة ريثما تساعده الظروف للعودة الى مسقط رأسه ، ومرتع صباه ، مدينة (كفرداد) التى ترعرع فيها ونشأ على حبها .

وبقى في ضيافة (ولي اغا) ثلاثة اسابيع معززا مكرما حتى طلب اليه ذا صباح افراد تلك الاسرة الكريمة مرافقتهم في الخروج الى صيد الخنازير في غابة قريبة من المدينة فرفض اول الامر هذه الدعوة لانه رأى فيما يرى النائم البارحة قتيلا مضرجا بالدماء في الغابة المجاورة ، وحين نظر فى وجهه فتح القتيل عينيه وهب واقفا على رجليه ثم بدأ يطارده

ويصرخ به ان (قف أيها القاتل •••••)

ولكن الصيادين وعلى رأسهم ابن اخي (الاغا) الحوا عليه في وجوب مشاركته اياهم في خروجهم هذا اليوم الى (الصيد) فرافقهم وهو يقول في نفسه (اضغاث) احلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين •

وتفرق الصيادون في انحاء الغابة كل يجرب حظه وفيما هو يسير الى جانب ابن اخي مضيفه اذا بالكلاب تطارد شبحا بعيدا بين القصب وسط المستنقع الواسع •• واذا بصاحبه يصرخ به ان « هيا وارم هذا الخنزير الكبير بسهمك فهذه فرصتك » •••

ويرمي سهمه فيصيب من الشبح مقتلا واذا بصرخة تند من صاحبه واذا هو يقول :

« ماذا فعلت ••• لقد قتلت شقيقي الاصغر (مردان اغا) فهذا جزاء الضيافة » •• ويصفر وجه المسكين ويحاول الانتحار حزنا وكمدا ويجتمع الصيادون حول جثة القتيل ويمنعون كريما من تنفيذ ما تقدم عليه من محاولة الانتحار • ويقبضون عليه ، ويسوقونه امامهم وقد حمل الاخرون جثة القتيل الى المدينة ، ويسلمون المتهم الى (ولي اغا) وهو يصرخ من الالم قائلا : —

« هذا تأويل رؤياى ، لقد توسلت اليكم في اعفائى من هذه الرحلة المشؤومة ••• ولكن هذه ارادة الآلهة » ••

ويوقف المتهم في احدى حجر القصر الكبير ، وينصرف الجميع الى الجنازة حسب المراسم الدينية ويعودون الى منازلهم •• وقد هدهم الحزن على الشاب القتيل •• واقيمت المآتم في كثير من الدور وقد ابلغ الحادث مسامع حاكم المدينة ، وكانت قد وصلت اليه رسالة من حاكم (كفرداد) في الصباح الباكر يوصيه باستعمال الشدة مع هذا الشخص الطريد المدعو بـ (كريم) فاهتبلها فرصة مواتية للايقاع به والانتقام منه شر انتقام ، فطلب من صديقه (ولى اغا) ان يسلمه اياه لمحاكمته غدا محاكمة مستعجلة وشنقه على احدى الاشجار في الغابة قرب

محل الجريمة فوعده هذا بتسليمه اياه صباح الغد .

وذهب الى داره يفكر فى امر هذا الرجل الكريم الذى طالما تحدث الناس عن مواساته للغرباء ، وعطفه على الفقراء والبائسين وكيف اوقعه سوء طالعه فى هذه الورطة ، واخذت تتنازعه عاطفتان عاطفة حبه لابن اخيه القتيل والواجب عليه الثأر له من قاتله ، وعاطفة اخرى هى الواجب عليه لضيفه الذى التجأ اليه هاربا من ظلم الناس وغدر الزمان ، وهو يعلم فى دخيلة نفسه انه بريء فكيف يسلمه لجلاديه وهو لا يزال يرسل الدمع مدرارا حزنا على القتيل ، ... وانتصرت العاطفة الثانية وذهب الى (كريم) فى موقفه فى الهزيع الاخير من الليل ، ودفع به الى خارج القصر مشيرا عليه بالهرب الى شعاب الجبل المطل على المدينة ليقضى فيه بضع ساعات ثم يجتاز الحدود عند طلوع الفجر ، الى مملكة (تبرانيا) وهناك ينقذ نفسه من انتقام الحاكم والقبيلة التي ينتمي اليها القتيل ... وعاد (ولي اغا) فى الصباح فانبأ الحاكم ان المجرم قد كسر باب الحجرة وفر تحت جنح الظلام الى حيث لا يعلم ..

ووصل (كريم) الى احدى القرى الواقعة على الحدود وقضى بضعة ايام فيها مستجديا اكف المحسنين حتى علم بامر قافلة من الحجاج تزمع السفر الى بلده القديم (كفرداد) للتبرك بزيارة المعبد المقدس هناك ، فصمم على مرافقتها بعد ان أطال لحيته وشعر رأسه واظافر يديه ورجليه وتزيا بزى الدراويش فقد طال به الحنين الى وطنه وزوجته التى لا يدرى ما حل بها فى غيبته الطويلة هذه ..

ووصل الى المدينة المحبوبة بعد ايام وذهب الى داره فوجدها خالية قد اصابها الخراب وعلم من اهل المدينة ان الحاكم قد اخذ ما وجده فى الدار من مال وسبى زوجته فاتخذها جارية له ثم اهداها الى جنده وعبيده يلهون بها مدة شهرين ثم اختفت ذات ليلة ولم يقع لها احد على اثر بعد ذلك .

فأثارت هذه الاقوال ثائرته فعزم على الانتقام ممن سبب له

كل هذه المحن والمصائب ولا يهمه بعد ذلك ان يموت قتيلا فى المعركة بينه وبين اعدائه ، او شنقا على شجرة من اشجار الغابة .

واخذ يدبر الخطط للانتقام بعد ان اتصل بجماعة من اصحابه القدامى الذين يكنون له حبا ووفاء ويذكرون له بعض ما فعله معهم من جميل فكان يقضى معظم ايامه فى المعبد المقدس يتظاهر بخدمة الكهان ويمضى لياليه عند اولئك الاصحاب فانهم كانوا يضيفونه الواحد بعد الآخر لئلا يبقى عند واحد منهم اكثر من ليلة واحدة فيلفت ذلك انظار المتطفلين والجواسيس .

وتمر الايام عليه بطيئة متثاقلة ويعلم من بعض اصحابه ان الحاكم على عزم القيام برحلة طويلة يصحبه فيها وجوه البلد واشرافه وفي مقدمتهم جاره التاجر البخيل الذى كان سبب كل هذه المحن والمصائب التي مرت به ، ويختار من اصحابه نفرا يستصحبهم معه الى طريق الغابة التى يزمع الحاكم وحاشيته المرور منه فينصبون لهم كمينا فى محل ضيق من الطريق لابد للقافلة ان تمر منه . ويحمل رجال الكمين قسيهم وجعاب سهامهم ويتخذون مواقعهم خلف الاشجار الكثة وقد راش كل منهم سهمه متهيئا لاطلاقه فى اللحظة المناسبة .

وانتظروا مرور القافلة طوال الليلة التى سبقت خروجها وفى الصباح الباكر لاحت لهم مقدمة القافلة من بعيد تتقدمها كلاب الصيد الضخمة .. واحست الكلاب بافراد الكمين فهاجمتهم هجوما عنيفا ودارت بين الطرفين رحي معركة طاحنة اسفرت عن مقتل خمسة كلاب وجرح ثلاثة رجال من اصحاب (كريم) وتراكض حرس الحاكم الى نشوب المعركة فطوقوا افراد العصابة وقبضوا على رئيسها ومن بقى منهم حيا واجهزوا على الجرحى منهم فقتلوهم ، وعادت القافلة من حيث اتت لان المنجمين المرافقين للموكب اشاروا بهذه العودة اذ اعتدوا هذا الحادث نذير شؤوم .. ونظر التاجر الى الرجل المقبوض عليه جيدا فعرفه واسر فى اذن الحاكم اسمه فاشار الحاكم الى رئيس الحراس ،

فقيد المتهم بالحديد والقي به حين بلغ المدينة فى غياهب السجن ، المظلم الرهيب حتى ينظر الحاكم في امره •

فلندع السجين في سجنه يصارع الآمه ، ويندب حظه ، ولنتحدث قليلا عن زوجته الحسناء (تركان) فقد ودعها زوجها حين اصدر الحاكم امره بنفيه من المدينة وسلمهـا ما يملك من مال قليل تستعين به عاـى تصريف امور معاشها ، الى ان تمر هذه المحنة القاسية وعسى ان تكون قصيرة الامد وتريد ان تمتحن الآلهة ايمانه وصبره على المكاره ، ويعود بعدها عزيزا الى موطن اجداده ومسقط رأسه ••

ومر اليوم الاول والثاني بسلام وفي صباح اليوم الثالث كانـت الزوجة مضطجعة فى سريرها وهي لا تزال في ثياب نومها الشفافة وقـد تهدل شعرها الطويل على جبينها وبرز نهداها وانحسر الثوب عن جانـب ساقها اليمنى وكانت قد صحت توا من النوم بعد ان رأت فيما يـرى النائم كأن زوجها قد عاد اليها موفور الصحة ، سليما معافي وانهال عليها يقبلها قبلات الشوق والحنان وفيما هي تتقلب في فراشها فرحة تعيـد في مخيلتها ذكرى هذا الحلم اللذيذ ، واذا هى برهط من الجند يقتحمون عليها غرفة نومها فيحملونها وهى على هذه الحالة الى دار الحاكم بعـد ان عاث الاخرون فى الدار فسادا فنهبوا اثاثها وخربوا مرافقها ، وكانت تصرخ مستغيثة طول الطريق دون ان يخف لنجدتها أحد ، حتى اوصلوها الى قصر الحريم فسلموها الى (القهرمانة) فرحبت بها وادخلتها الحمام ثم تسلمتها بعد خروجها جاريتان اخذتا بتسريح شعرها وتزيينها بأحسن زينة وهى تبكى ولا تريد اكمال زينتها ولا ارتداء الحلل البهية التـى جاءتا بها اليها ، وهما تواسيانهـا وتصفان لها ما سوف تتمتع به مـن عيش رغيد ، وحياة ملذة ممتعة في مخدع الحاكم اذا اظهرت الطاعة لـه في كل ما يريد واشبعت رغباته وتـركت هذه الاحزان ، وامتنعت مـن ارسال الدموع والا فالويل مما ستجـد منه حين يثور غضبه ، وينفـد صبره وتظاهرت السيدة الحسناء بالرضا والاذعان للامر الواقع وحملت

الى الحاكم فى محفة يحملها اربعة من العبيد الغلاظ ، ثم انزلت من المحفة وادخلت عليه ، وهو فى مجلس لهوه الخاص الذى يقوم فيه على خدمته عدد من الجوارى والخصيان ، فبهره حسنها وما تتمتع به من جاذبية لم تتهيأ لغيرها ممن عرف من النساء .. فقام اليها وهو يقو ل:

« يا لرواء الحسن الجذاب .. تباركت الآلهة اذ ابدعت صنعك فى احسن تقويم .. لقد كنت جوهرة غالية في يد فحام .. انك لا تليقين الا بالملوك والامراء.. تقدمى الي ايتها المخلوقة الرائعة .. »

قال هذا ومد ذراعيه ليحتضنها فنفرت منه واجفلت مرتدة الى وراء فصاح بها قائلا «هذه عاداتكن .. جميعا .. تتمنعن واتن الراغبات».

ثم صفق بيده معلنا انصراف العبيد والجوارى .. وحين خلا بها هجم عليها بكل ما أوتى من قوة ، فدافعته من نفسها ما وسعها ان تدافعه ثم خارت قواها وتمثل لها ضعفها ، ووحدتها فاستسلمت له يصنع فيها ما يشاء ، واشهدت عليه الاثاث والجدران والارض والسماء والارواح السابحة في فضاء الدار والآلهةالمتربعة على عرشها في السماء ومرت الايام والليالى يسبق بعضها بعضا وهى تستسلم له كل ليلة وتطيعه فى كل امر، وقد شعرت بالراحة واليأس احدى الراحتين وعدت ذلك تضحية منها تكفر بها عن خطايا ارتكبتها الكثيرات من بنات جنسها ، وان الآلهة الآن تبتليها لتعلم اتصبر ام تكفر ، وان لا بد من يوم تنتهى فيه من هذه المحنة ويجتمع شملها بزوجها الحبيب وتنتقم الآلهة ممن ظلمهما دون ذنب جنياه .. X

وذات ليلة تمكنت من اغراء الحاجب الخاص وكانت تحس منه انجذابا اليها وتدلها في هواها ، وكتمانا لهذا الهوى اشفاقا وخوفا عليها وعلى نفسه من انتقام الحاكم .. واستغلت ساعة من ساعات ضعفه فوضعت خطة للهروب من ذلك السجن وتلك الحياة الداعرة التي تحياها فيه . واخفقا فى تنفيذ خطتها في اللحظة الاخيرة . فثارت ثائرة الحاكم فاوعز باعدام الحاجب وبالقائها هي بين احضان جنده يعبثون بها ويلهون

انى شاؤوا ومتى ارادوا وفي غمرة فرحهم ولهوهم اكثروا من تنـــاول الخمر فى تلك الليلة حتى فقدوا وعيهم واستأثر بها واحد منهم ، لم يذهب الخمر بعقله بعد فأخذها الى دار امه العجوز واخفاها ريثما تسنح الفرصة للسفر معها الى خارج البلاد ، فقد خلبت بجمالها لبه ، وتفتح لها قلبـه فرأى من المؤلم للنفس ان تسلم مثل هذه الزهرة اليانعة الى تلك الذئاب الهائجة يفترسونها واحدا بعد الاخر دون ان تأخذهم بها رحمة او يرق قلب احدهم لها ..

• قضوا ليلتهم تلك يبحثون عنها ويتهم احدهم الاخر باخفائها وانهى الخبر الى الحاكم فى الصباح فجن جنونه وفتش المدينة تفتيشا دقيقـا وخصص جائزة كبيرة لمن يدلي بخبر عنها .. وبعد ان هدأت العاصفـة فر العاشق المفتون بجمالها مستصحبا اياها تحت جنح الظلام الى العاصمة التى تبعد عن (كفرداد) اكثر من عشرين فرسخا واختلط هناك بسكـان المدينة المزدحمة فلم يعرفه احد ، وتركهـا لدى احد التلال المحيطـة بالعاصمة كيما يدبر لها سكنا او يعثر على من يأويها عنده الى اجـل مسمى .. وكان قد هده التعب والسهر والسير المتواصل فجلس علـى دكة قرب احدى الدور ليستريح قليلا وليفكر فى امره فأخذته سنـة من النوم،ولم يستيقظ الا وقد ارتفع الضحى واحرقته الشمس بحرارتها فهب مذعورا وهرول الى خارج المدينة ووصل الى المكان الذى تـرك المرأة فيه ، فوجده خاليا وبحث عنها بين التلال كلها فلم يعثر على اثر .. ودخل المدينة وهو يندب حظه العاثر وعقله القاصر ، الذى اوحى اليـه ان يتركها في مثل هذا المكان ..

هذا ما كان من امر (تركان) والفتى العاشق لها واما ما كان مـن امر زوجها (كريم) فقد اخرجه الحاكم من سجنه فى صباح اليوم الثانى وجمع هيئة المحكمة الخاصة لمحاكمته بعد ان وجه عليه عدة تهم كل منها يستحق عليها القتل ، وقررت المحكمة تجريمه والحكم عليه بالمـوت ، وحشر الناس فى اليوم المحدد لتنفيذ حكم الموت به فى طريق الغابة التى

قبض عليه فيه متلبسا بمحاولة اغتيال حاكم المدينة وحاشيته وحضر الجلاد يحيط به رهط من المبوقين والطبالين ونصبت للحاكم وكبار رجال الدولة منصة جلسوا عليها يحيط بهم اهل المدينة من رجال ونساء وهم بين شامت به ورات لحاله ولكن الشامتين كانوا قلة لا يعتد بهم ، اما الراثون لحاله المشفقون عليه فهم ذوو الاكثرية من السكان ولكنهم لا يجسرون على اظهار انفسهم ، خشية انتقام الحاكم الجبار ..

واجلس الرجل بين ايدى الجلاد على الارض فوخزه برأس سيفه في مؤخرة رأسه من الخلف لكى يطأطىء رأسه لضرب عنقه ونفخ الجنود فى البوق وضربوا على الطبول ضربات سريعة ، ونهض الحاجب فقرأ على الناس الجرائم التى ارتكبها الرجل منذ قرر الحاكم نفيه من المدينة حتى عاد خلسة وقام بقطع الطريق محاولا اغتيال رجال الدولة ، وهتف الجميع ثلاث مرات قائلين « تحيا العدالة » ثم هتفوا للحاكم وللامير بهرام الشجاع امير البلاد الساكن فى قصر الامارة بالعاصمة واعطيت الاشارة للجلاد ليتم عمله ورفع يده بالسيف ، ونفخت الابواق ودقت الطبول مرة اخرى ، وفى اللحظة التى كاد يهوى الجلاد بسيفه ليطيح برأس (كريم) لاحظ المجتمعون غبارا كثيفا يقترب من جهة العاصمة بسرعة هائلة ، واشار الحاكم الى الجلاد ان يتوقف قليلا ، واتجه الكل بابصارهم نحو الغبار الذى اقترب من الجمع المحتشد فبان شاب جميل الصورة يحف به عشرون فارسا مدججون بالسلاح وهو يتقدمهم ملوحا بورقة فى يده ، وران على الجمع سكوت مطبق ، وتقدم الشاب من الحاكم دون ان يترجل من على حصانه والتفت الى الفرسان الذين خلفه قائلا :

« اقبضوا على هذا الرجل » واشار الى الحاكم وتقدم الفرسان فقبضوا على حاكم المدينة قبل ان يفيق من الدهش الذى عقد لسانه فلم ينبس ببنت شفة ثم صاح الفارس الشاب بالجلاد ان يخلي سبيل (كريم) وتكلم الحاكم عند ذاك بعد ان زال تأثير المفاجأة قائلا : « ما

معنى هذا؟؟ » .

وترجل الفارس الشاب الجميل عن فرسه ، وبدأ يخاطب المجتمعين يعلمهم انه رسولا لامير بهرام الشجاع الى اهل المدينة ، وانه جاءهم يحمل امرا بعزل الحاكم وارساله مخفورا الى العاصمة لمحاكمته على اشاعة الظلم فى المدينة ، واستهتاره بالفساد واعتدائه على المحصنات من النساء وامرا ثانيا من الامير بتعيين الرجل المحبوب (كريم) حاكما على مدينة (كفرداد) وحاميا للمعبد المقدس فيها .. وقدم الورقة الى رئيس حرس الحاكم والى الحاجب وافراد الحاشية الآخرين فطالعوها بانفسهم وتأكدت لهم صحة ختم الامير .. وهتف الناس عاليا للامير بهرام الشجاع وللحاكم الجديد كريم .. وتسارعوا اليه فحملوه الى المنصة فأجلسوه عليها بين الحاشية ، ثم تقدم الفارس الشاب منه فقدم اليه فرسه الاصيل وعاد الى المدينة بين هتاف الجماهير وتهليل النساء فدخل قصر الحاكم ، وهو لا يكاد يصدق ما حدث ..

وبعد ان استقر به المقام ، استأذن في الدخول عليه الفارس الشاب رسول الامير بهرام ، فسمح له بالدخول فوقف بين يديه وقال « هل تعرفنى ايها الحاكم الجديد ؟ .. »

فصاح به : « تعال فاجلس بجانبى فانا مدين لك بحياتى .. »

قال هذا : « كلا ... لن اجلس حتى تقول لي من انا ، ان كنت قد عرفتنى »

قال : « ان صورتك اقرب الى النساء منها الى الرجال فانت جميل حسن الصورة ولكن افعالك تفوق اشجع الرجال .. فبالله .. عليك من انت ؟؟ »

فنزع هذا فلنسوته ، فتناثر الشعر على كتفيه وابتسم قائلا : « هل عرفتنى الان يا زوجى الحبيب » .

فصاح : « تركان ... زوجتى المخلصة » .

والقى كل منهما فى احضان الآخر .. وتعانقا ودموع الفرح تسيل

على خدودهما ..

واتتشر الخبر فى المدينة واقيمت الافراح ونحرت الذبائح للآلهة وتجمهر الناس حول قصر الحاكم يهتفون لصديقهم القديم (كريـم) وذهبوا فى مظاهرة الى دار التاجر اللئيم ، جار كريم الذى سبب له كل تلك المصائب ليقبضوا عليه فوجدوه مختبئا وهو يرتجف هلعا وجاؤوا به الى الحاكم فارسله صحبة الحاكم الجديد مخفورا الى العاصمة لينال جزاءه على يدى الامير بهرام الشجاع العادل .

وشرحت الزوجة المخلصة لزوجها الامر ، فانبأته كيف تركها الفتى العاشق فى ظاهر العاصمة ، ليعود بعد قليل فوجدت الفرصة مواتيـة للتخلص من هذا الفتى ايضا ودخلت المدينة مع الفجر وبحثت عن قصـر الامارة ، فدلها عليه الناس ، وطلبت مواجهة الامير بهرام فقد كـان يجلس للمظالم صباح كل يوم ، وقصت عليه قصتها وشرحت له الظلـم الصارخ الذى تعرضت له هي وزوجها المسكين الذى لا تعرف مصيـره منذ غادر المدينة منفيا فأرسلها الامير الى دار الحريم لترتاح حتى ينظر فى امرها ، واوصى بها خيرا ، وبدأ يحقق بنفسه وارسل عيونه الـى مدينتى (كفرداد) و (شاماز) وعرف حقيقة امر الرجل الشهم المظلوم (كريم) وارسلها على رأس تلك الكوكبة من الفرسان ، فوصلت قبل ان ينفذ سهم القضـــاء .

وعاش الزوجان فى سعادة تامة ، يحكمان الرعية ويشيعان العدل والفضيلة فى المدينة وقد خصص الحاكم الجديد دارا قوراء بالغربـاء والفقراء ، فيجدون فيها كفايتهم من الطعام والشراب والمنام دون مقابل، فاحبه الناس وطار صيته الحسن فى المدن المجاورة ، حتى اصبح مضرب الامثال ، وقدوة الحكام واوصى له الامير بهرام بالملك من بعده لانه بلغ ارذل العمر ولم يرزق ولدا يرث العرش ــ وسماه (الامير كريم العادل) وعاش وزوجته في بلهنية من العيش حتى جاءهم هادم اللذات ومفـرق الجماعات .



نمـرود

كانت جميلة جدا ، يكاد الناظر اليها يحسبها ظبيا نافرا ؟ او غزالا شاردا فهي اذ تقف على رجليها الخلفيتين ترى صدرها وبطنها ببياضهما الناصع ويديها المحجلتين وكأنها الفرس الاصيلة اما لون ظهرها وبقية اعضاءها فرمادى يميل الى السواد ... ولست ادرى كيف جاءتنا ومن الذى رماها ليلا فى حديقة دارنا الواسعة وهى بعد جرو صغير ، وكل الذي اذكره ان الاطفال فرحوا بها واخذوا يلاعبونها ويداعبونها حتى بلغت السن التى تثير فيه غرائز الذكور من جنسها ، وامتلأت ساحة الحديقة الخضراء بعدد عديد من مختلف الانواع وشتى الاشكال ، وهى تتمنع عليهم وتظهر جفاءا كاذبا احيانا وتهاجم احدهم تارة بقسوة ما بعدها قسوة ، ثم تميل بعض الميل الى الاخر فتحصل من جراء هذا كله منافسة كبيرة ، وتدور معركة هائلة بين هؤلاء جميعا تسيل لها الدماء وتترك فى البعض الآخر جراحات وكدمات ..

وكم اوقعتنا هذه الاحداث فى مشكلات كثيرة كنا فى غنى عنها ، واخيرا كان ما ليس منه بد ، وانتفخ بطنها وبعد ان بلغت بحملها الغاية ، وانقضت المدة المعينة جاء الاطفال يتصايحون يبشر احدهم الآخر فقد وجدوا بضعة اجراء صغيرة اقتسموها بينهم واعتبروا كل واحد منها ملكا خاصا لواحد منهم ، وكان معظم تلك الاجراء من الاناث فعقدت مؤتمرا عائليا ونصحت لهؤلاء الاطفال وانبأتهم بالخطر الذى سيحيق بنا اذا احتفظنا بكل هذا العدد من الاناث ، ونحن الذين ذقنا الامرين من انثى واحدة ، اذ سيبلغ بعد زمن قصير عدد الكلاب اضعاف عدد افراد الاسرة وهناك الطامة الكبرى ..

واخيرا قدم الولد البكر اقتراحا بالاحتفاظ بالجرو العائد له فقط

وهو ذكر ولله الحمد والتخلص من الباقيات بتوزيعها بين المعـــارف والاصدقاء ، ووافق المؤتمرون على الاقتراح بالاكثرية المطاقة ، لم يشذ منهم الا الطفل الاصغر فقد عارض معارضة شديدة ، ولكن الامر دبـر بليل بعد ان قمنا بحملة دعاية واسعة بين معارفنا عددنا فيها المزايـــا الحميدة والاصل الرفيع الذى تنحدر منه هذه الاجراء الاصيلة ..

واتهى الامر اخيرا وخلت الدار الا من (نمرود) وامه التي قررنا التخلص منها ايضا باقرب فرصة ، وبلغ (نمرود) اشده واصبح اكبر من امه حجما واكثر استئناسا واشد منها قياما بواجب الحراسة وكان شكله هائلا مخيفا كشكل الاسد ، وبدأت امه تعاكسه وتعاركه اول الامر تريد ان تحتفظ بمكانتها السابقة فى يأس مرير،ولكنها تخاذلت اخيرا وأنزوت في ركن قصى من الحديقة وهي تنظر اليه والينا نظرات فيها الكثير من معانى الحسد والغيرة والعتاب .

واصبح (نمرود) الشغل الشاغل للاطفال الى ان اقترب الموسـم الجديد ، ولاحظنا منه انه بدأ يستلطفها ويحاول التحرش بها ، ولكنهـا كانت تصده بقسوة قاسية ، واخذت الكلاب تهاجمه بوحشية حــين يجتاز سياج الحديقة ، كل يوم يطارد اولئك الاغراب مدافعا عن نفسه وعن اهل بيته ، وعاد الينا يوما وهو يعرج فى مشيته ، فقد أصيب بجرح فى ساقه الايسر وبدأنا نخشى عليه من العدوى اذ من يدرى ما تحمل تلك الكلاب السائبة فى لعابها من ادواء .

وكان ولدى البكر اشدنا حبا لنمرود واكثرنا عطفا عليه، يلاعبه ويداعبه ويغسل جسمه بالماء الفاتر والصابون بين يوم ويوم ، ويطعمه بيديـه ، حتى انه كثيرا ما كان يقاسـمه ما تقدم له من طيب الطعـام واحسنه ويقتطع احيانا من مصروفه اليومي ليشترى له قطعة كبيرة من اللحم اللذيذ فيقدمها اليه ، ويتمتع بمشاهدته حين يلتهمها والسرور باد على محياه ، وكان اخشي ما يخشـاه ان يصاب بمرض خبيث من جراء اختلاطه بتلك الكلاب وعراكه معها ، فكان يعيده الى الدار حين يذهب

الى المدرسة ، فيخرج (نمرود) معه مودعا كما اعتاد ان يفعل، ويستقبله حين عودته فرحا بعد ظهر كل يوم ، وكان يقسو عليه احيانا حين يحاول رده الى الدار صباحا فيمتنع هذا عليه فيهرب مطاردا تلك الكلاب اللعينة ، يريد ان يؤدبها ويمنعها من الاقتراب من الدار •

وفى احد الايام كان الصبي هائجا مائجا لتأخره عن الذهاب الى المدرسة وخرج عجلا يريد ان يسبق الوقت ليصل المدرسة قبل موعد الدرس ، ولحق به « نمرود » مودعا فصرخ به طالبا اليه العودة الى الدار ، واصر هذا على اللحاق به ، وفي سورة غضبه رفسه بقدمه على بطنه رفستين قاسيتين ، فعاد المسكين الى الدار وذهب الصبي الى المدرسة •

وعاد الصبي قبيل المساء وافتقد نمرودا وفتش عنه فوجده رابضا في ركن منعزل من حديقة الدار ولفظ اسمه بحنان فنظر هذا اليه وحاول ان يقوم لاستقباله ولكنه عجز عن ذلك فانطرح ارضا وجاءه بالطعام فلم يذقه، وجن جنون الصبي وذهب فاتاه بشيء من الحليب والبسكويت وبكل ما لذ من اطايب الاكال ، ولكن محاولته ذهبت ادراج الرياح، فلم ياكل نمرود شيئا ، وانقضي اليوم الاول واعقبه الثاني فالثالث، ونمرود يتحامل على ارجله ويسير في باحة الدار ويدخل الغرف ينظر الينا نظرات تفيض بالمحبة ، وينطرح على الارض كلما سار بضع خطوات واخذ منه الهزال حتى ما نكاد نعرفه ، وكان ينظر الينا دائما ، فكنت اهرب من نظرته وصعدت يوما الى سطح الدار هاربا من تلك النظرات، وطفرت الدموع من عيني ،وانا الذى لم ابك منذ وفاة والدي ونظرت من السطح الى الحديقة ، واذا بنمرود يرفع رأسه وتلتقي نظرتانا ، فما عدت املك نفسي عن البكاء وعلا صوتي بالنحيب ، ولمحني الابن الاصغر ، واخذ يصيح باخوته ناشرا الخبر العجيب ، فلم يسبق له ان رأى اباه يبكي قبل اليوم ، وتراكض الصبية الى السطح يتطلعون الى وجه ابيهم ، وكفكفت دموعي وتظاهرت بالابتسام ، خشية ان تنتقل

اليهم عدوى البكاء .

وعدت في ظهيرة اليوم الثاني الى الدار ، وما ان اخذت مجلسي الى المائدة حتى دخل (نمرود) غرفةالطعام وهو يمشي وئيدا ونظر الينا نظرته المعهودة ثم سقط على الارض واشتد بي الالم النفسي فتركت المائدة واسرعت الى التلفون ، وطلبت سيارة اجرة حيث نقلناه الى المستشفى البيطرى ، وكان الصبي قد احتضنه بحنان طول الطريق واخوه الى جنبه ، وهناك ادخلوه الى احد الاقفاص، وغادرنا المستشفى بعد ان اوصيتهم به خيرا ...

وكان الصبي المسكين يذهب كل يوم الى المستشفى ويقابل نمرودا ويناغيه باحب الاسماء ، فلا يجد منه استجابة له واصبحت نظراته شاردة لا معنى لها ، وكان لا يزال ممتنعا عن تناول الطعام ، وفي اليوم الثالث ابلغتني ادارة المستشفى خبر موته ، وارسال مخه الى التحليل لاشتباههم باصابته بداء الكلب ناصحين لي بارسال افراد العائلة الى المستشفى لحقنهم بالمصل الواقي، ولكن الله سلم اذ كانت نتيجة التحليل سلبية ، واخفينا الخبر المؤلم عن الصبي اياما فكان يتحدث الينا كل ليلة عن احلامه حين يعود نمرود الى البيت سالما معافى ، فكنت اجيبه باحاديث امهد له بها كيفية انهاء الخبر المذكور اليه ، حتى صارحته اخيرا بالحقيقة المؤلمة فبكى ماشاء الله له ان يبكي ...

وعادت ام (نمرود) الى سابق عهدها من الملاعبة والمرح تاركة ركنها ذاك المنعزل ... وحل الموسم الجديد بعد اشهر وعادت الكلاب الى سابق عهدها ، تتغزل باناثها دون خوف ولا وجل ... فقد ذهب (نمرود) الى غير رجعة ... وصرخ الطفل الصغير حين رأى الضجة المعلومة .

(بابا .. بابا .. ستطلع علينا الكلبة بنمرود جديد ..)



حياة عائلية

دخل الدار عائدا من محل عمله فوجد والده الشيخ يغط بنومه قرب باب الدار ، وشاهد امه تشتغل برتق بعض ثياب ابيه وهي تبكي من غير ان يظهر صوتها . فلم يهتم بذلك لانه تعود رؤية ذلك المنظر فربما يكون والده قد ضربها لسبب تافه وذلك قبل ان ينام ، وجلس على كرسي خشبي كان قد اشتراه قبل مدة وهو الكرسي الوحيد الموجود في الدار - يطالع جريدة وخرجت اخته من الغرفة فسألته بكل جفاء ان كان يريد طعاما ، ولم يجبها وصعد الى غرفته فى الطابق الثاني، فوجد تصويرين من تصاويره ممزقة وكان احدهما يمثل فتاة تنظر في المرآة وهي تبتسم والاخر يمثل اخرى وسط الاشجار وكان يعتز بهذين التصويرين ، فصاح بأخته يسألها عن اسم (الطفل) الوقح الذى فعل هذه الفعلة ليعاقبه جزاء له على عمله .

فأجابت :

- كان والدى يصلي وكان التصويران معلقين باستقامة نظره فقال - لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة او كلب ومزقها ثم ضرب والدتي قائلا لها انت التي افسدت ابنك هذا لانك لم تكوني تخبريني بأعماله من قبل ، ثم صعد الى الغرفة فوجد (الكمنجة) معلقة فقال ماهذه ؟ اريد ان يكون ابنك راقصا هذه المرة وامسك بالكمنجة و ...

- ماذا ؟ وضرب بها الارض ؟ ...

- نعم !!

- تعسا لك ايها الوالد المجنون .

وأخرج المفكرة من جيبه ودون هذه الحادثة ثم لبس سترته يريد

الخروج فتعلقت به والدته المسكينة تطلب منه ان لا يخرج جائعا ولكنه تملص من بين يديها وخرج ووجهته المطعم .

ودخل المطعم فوجد صديقه (م) جالسا يحتسي صحنا من (الشوربة) فسلم وسحب كرسيا وجلس امامه ودار بينهما الحديث الآتي : –

م – اهلا وسهلا بعزيزي (س) ما الذى جاء بك في مثل هذا الوقت أليس في بيتكم طعام ؟ ...

س – ارجو ان تسأل نفسك اولا هذا السؤال

م – اما انا فسأسرد لك قصتي فترى ان كنت محقا في مجيئي الى هنا ام لا ؟

س – وماهي قصتك –

م – ذهبت امس بمناسبة عطلة (الجمعة) الى بيت احد اصدقائي (وكان غربيا) فاستقبلني هو وزوجته من الباب وصافحاني وبعد ان جلست قليلا جاءت الخادمة بالقهوة ثم جاء اولاد صديقي الثلاثة كان عمر اكبرهم لا يتجاوز السادسة فصافحوني واحداً واحداً وجلسوا بكل ادب واشتركوا معنا بالحديث وقد كانوا على غاية من النظافة فغبطت هذه العائلة بنفسي على سعادتها ثم ودعت وانصرفت وانا آسف على أن ابي لم يمنحنا بعض هذه السعادة .

واليوم ذهبت الى البيت بعد الانتهاء من عملي واخذت اقص على والدتي وزوجة اخي عن نظافة تلك العائلة وحشمة افرادها وتربية اولادها وبينما انا اطنب في مدحهم اذ صرخت بي والدتي بصوت كالرعد وهي تقول :

« اذا انت تظل تمدح النصارى تره الله يموتك على دينهم وتخرج من الجنة »

فنظرت الى الارض حولي وكانت كالمزبلة من كثرة الاوساخ ثم الى فستاني والدتي وامرأة اخي وكل منهما جالسة به على الارض القذرة ثم الى صحن من النحاس مطروح على الارض كان به بقايا طعام

وقد اجتمع عليه الذباب ثم الى ابن اخي الصغير وكان يبول حينئذ في احدى زوايا الدار وقد اجتمع على وجهه الذباب كما اجتمع على الصحن وقد سال الصبغ الاحمر من عينيه وعلى جبينه. ثم الى اخيه وهو في الثامنة من عمره وقد دخل وصاح بأمه وطلب منها (آنة)(١) ولما حلفت له انها لا تملك الآنة اخذ يسبها بكلمات اخجل ان اتلفظ بها .

حينئذ حولت نظري الى والدتي المسكينة وقلت لها :

ـ يا اماه ان الله سبحانه وتعالى عادل وليس من العدل ان يجعل الجنة من نصيبكم وانتم بهذه الحالة لا تعرفون من الدين الا اسمه (٢)

فرفعت هناك الحذاء مهددة وهي تصرخ :

ـ اخرج ايها الاحمق ؟؟

وهذا هو السبب الذى اخرجني من بيتي لاتناول الطعام في المطعم فقال له (س) .

ولكن والدك لم يكسر الكمنجة ولم يمزق التصاوير ولم يضرب امك ...

ثم ابتسم ابتسامة مرة وصاح بالخادم يطلب صحنا من الطعام ..

---

(١) الآنة ـ عملة هندية تساوي اربعة فلوس تقريبا كانت هي العملة الرسمية في العراق اثناء الاحتلال البريطاني واول عهد الاستقلال.

(٢) نشرت بمجلة (الحديث) الحلبية بتاريخ ١ تموز عام ١٩٣٠ .



اختي الصغرى

كانت « نورية » اختي الصغرى تبذل جهودا يائسـة في اقناعي بمرافقتها الى الموعد الذى حدده لها خطيبها « هشام» خالعـة عليه من النعوت الرائعة والاوصاف الجميلة ماشاء لها هواها ان تخلعه عليـه، فهو شاب وسيم ، ذو جاذبية لم تتهيأ لغيره ، وفوق هذا وذاك فقد اوتي خلقا عظيما ، ورجولة صادقة، يزين كل ذلك شرف ونبل وغيرة لا يملكها الكثير من شباب اليـوم الذين فقدوا كل هذه المثل واصبح الواحـد منهم لا يعرف من الحب الا ذلك النوع « الآثم » ولا يبغي من الفتـاة الا المتعة الآنية واللذة العابرة ، ثم ينبذها بعد ذلك نبذ النواة ، راكضا وراء اخرى ، ناصبا لها الشباك ليوقعها فى حبائله من جديد، شأنه فى ذلك شأن النحلة التي تنتقل من زهرة الى زهرة تشم عبير هذه وتمتص رحيق تلك ثم تطير مسرعة الى ثالثة فرابعة وهكذا الى ان ترتوى من ذلك الرضاب الشهي ولايهمها بعد ذلك ان ينال تلك الزهرات اليانعة الذبول او يعفيّ عليها البلى .

وبعد ان انتهت اختي نورية من حديثها ذاك اقتادتني الى حيث كان الشاب الجميل واقفا فى ركن من الشارع المؤدي الى بغداد الجديدة ينظر فى ساعته بين اوان وآخر ، وحـين اقتربنا منه بدت على محياه علائم الارتياح واشرق وجهه بابتسامة عذبة ، ورمقني بعين نهمة جائعة شعرت خلالها ان ما يشبه دبيب النمل يسـرى باعضائي كلها ، فكنت اقرب ما اكون الى وصف الشاعر :

خطرات ذكـــرك تستثير مودتـــي
فاحس منهـا في الفؤاد دبيبـــا
لا عضـــو لي الا وفيه صبابـــة
فكان اعضـــائي خلقن قلوبـــا

وللمرة الاولى فى حياتي احسست بالكراهية لاختي ، وبالحسد والغيرة منها ، بالرغم من كوني متزوجـة منذ بضع سنوات ، من هذا الرجل الكهل الـذى لم يشعرني بوجوده ، او لم يشعر هو بوجودى ـ بتعبير ادق ـ فقد تزوجني ـ فيمايبدو ـ ليجعل مني خادمة اقضي له حوائجه واهيىء له طعامه وانظف له ملابسه الى غير ذلك مما تقوم به اية امرأة اخـرى من محارمه او ممن يستأجرهن من الخادمات لمثل هذه الاغراض ، اما الالتفات الى النواحي الاخرى الحسية كالملاطفـة والمداعبة ، واطراء جمالي والتغزل بمحاسني والاعجاب بذوقي في تنسيق البيت وانتقاء الثياب وطريقة تصفيف شعرى ، فذلك كله بعيد عن تفكيره فهو رجل قد ركبه الشيطان ، وزين له اتباع سبيله ، فابتلاه بداء الشذوذ الجنسي ، فانصرف الى ممارسـة ذلك النوع من الاثم العظيم ، ليله ونهاره ، غير آبه بما اقاسي انا في وحدتي القاتلة ، اقضـي الليالي اتقلب على فراش من الحرمان والكظم ، اتعجل قدوم الصباح لعلي ارى في التحدث الى صويحباتي خلال النهار بعض التنفيس عما اكابـده في الليالى الطويلة الموحشة . ومع كل هذا فلم يخطر ببالي ان اخون هذا الزوج الكريه ، في يوم من الايام او انحدر فى حمأة الاثم الشاذ الذى جرف تياره بعض من عرفت من النســاء اللواتي كن يتهامسن باشياء لم اكن افهمها تمام الفهم ، ولست ادرى اكان عزوفي عن خيانـة زوجي هذا عن عفة مني ام كانت ظروفي غير مواتية ، ام كان الخوف والجبن يمنعاني من الانزلاق ، ام سينفد صبري فى يوم من الايام وتزل قدمي فانحدر الى الهاوية ، في اول فرصة تواتيني ؟! ولقد شعرت حين التقت عيناى بعيني هذا الشاب الماثل امامنا انا واختي بابتسامته الحلوة الرائعة ،

اني فى سبيل القيام بمغامرة جنونية اضحي فيها بكل المثل التي حافظت عليها طوال بضع السنوات الماضية فهذه فرصتي الوحيدة ولن ادعها تفلت مني ، ونظرت الى اختي فوجدتها مضطربة كأنها احست بما يدور فى خلدى ، ثم عضت على شفتها وقالت :

اقدم لك « زكية » اختي الكبرى .

ومد الشاب يده مصافحا وحين امسك بيدى ابقاها فى يده مدة اكثر مما تتطلبه المصافحة ثم قال مخاطبا اختي :

« اعددت لك اليوم مفاجأة سارة يا نورية ، فسوف نذهب في قارب استأجرته لهذا الغرض الى (الجزرة) ، وسيزيد سرورنا بوجود اختك معنا » .

وقضينا مساءا ممتعا فى « الجزرة » فكانت اختي تختفي عن انظارنا بين الاشجار عامدة ونبدأ انا وهو نفتش عنها ، حتى يجدها احدنا فيمسك بها ، كما يلعب الاطفال اللعبة المسماة « بالختيبة» ولكني لم اعثر عليها ابدا ، بل كانت تتعمد اظهار نفسها له حتى يعثر عليها هو فيخلو بها بعيدا عني، وهكذا بدأت احقد على المسكينة اختي دون سبب ...

ومرت الايام تباعا ، وبدأ الشاب ينظر الي نظرته الى الفاكهة الناضجة الشهية ، فهو رجل يريد ان يستعجل التهام الثمرة المحرمة، ليروى غليله ، ويسكت جوعه ، ويطفيء هذه النار المتقدة فى جسمه الفتى ، ولا يريد انتظار تلك الثمرة الفجة مرة المذاق حتى يأتي اوان قطافها ، فتتقدم اليه فى طبق من الذهب وسط ضجة مفتعلة ، يتخللها الطبل والزمر ، تحف بحامله العشرات من الرجال والنساء اللواتي يملأن الفضاء بزغاريدهن السخيفة .

ورضيت ان ازوره ــ اخيرا ــ دون ان استصحب اختي فى داره وكان افراد الاسرة قد خرجوا لزيارة عمه الذي عاد من حج بيت الله الحرام قبل يومين . الا (هشام) فقد ابى ان يرافقهم متعللا باعذار

واهية ، ودخلت الدار خائفة اترقب فاستقبلني استقبالا حسنا واخذني الى حجرة الاستقبال ، وقدم لي فنجانا من القهوة صنعها بيـده ، ثم امسك بيدي واقترح ان يريني مرافق الدار ، وبعد ان طاف بي جميع الحجرات ادخلني غرفة نومه الخاصة ، وكان اثاثها منسقا تنسيقا بديعا، ووضع فى ركن منها سرير من الخشب يتسع لشخصين ، عليـه فراش وثير ، فدفعني برفق حيث اجلسني على حافـة السرير ، وجلس هو الى جنبي بعد ان اخذ مني عباءتي فالقى بها على كرسي وضع بقرب السرير، وكان على الوسادة كتاب مفتوح فمددت يدي اليه ، ونظرت الى عنوانه واذا به قصة (الرباط المقدس) لتوفيق الحكيم ، ولم اكن قد قرأته من قبل ، ونظرت الى الصفحة المفتوحة وبدأت اطالع العبارات الآتيـة من فصل (الكراسة الحمراء) :

« ووقفت السيارة اخيرا امام عمارة فخمة فى حي الزمالك، فنزل (....) واعانني على النزول ووضع فى كف سائق التاكسى ورقـة نقدية .. ثم تأبط ذراعي وصعد بي الى مسكنه .. وهو (شقة) ظريفـة انيقة ، فلمحت فى ركن الصالون مائدة منصوبـة عليها اطباق من اللحم البارد والحلوى والفاكهة وزجاجة من الوسـكى ، وساعدني فى خلـع معطفي بينما شفتاه تلمسان يدى وذراعي ونحرى لمس النسيم ، لقـد تجنب فى كياسة تشبه الحياء ان يتعجل اى التصاق بين جسمينا ، لكأني به ذلك الذواقة الذى يريد ان يستمرىء الكأس على مهل .

وقال لي بابتسامة وديعة .. ارجوك ان تعتبرى البيت بيتك .. وجعل ذراعه حول خصرى ، واتخذ راسى من كتفه شبه وسـادة .. فقادني الى حجرة نومه .. وتلقى جسمينا (ديوان) وثير ، وقال لي في همسة عذبة : (يا حبوبتي) وطوقني والتصقت شفاهنا .. وتنفسنا والعين فى العين .. فخيل الي اني اشرب انفاسه شربا .. وانها تهبط الى سويداء قلبي ، فادركت عندئذ ان جسدي كان جوعان حبا .. وان هذا الرجل يستطيع ان يصنع بي ما يشاء .. وهنا شعرت باصابعـه اللبقة تفك ازرار ثوبي وتجردني منه بغير لهفة ولا عجلة .. ثم جعـل يعجب بى وانا هكذا .. ثم اخذ يداعبنى بيده وفمه .. انها عين القبلة التى عرفتها فيما مضى .. ولكنها كانت تطبع على جسد هامد .. يتمنى

في قرارته الخلاص ويود لو يدفع عنه تلك المداعبات الثقيلة التي يتكلف احتمالها تكلفا .. اما هذا الحبيب (....) فلا شيء منه اكرهه قط ، لقد خيل الي اني اريد بدوري لو اغطي جسمه بقبلاتي .. واخيرا حملني وانا في شبه غيبوبة الى سريره المعطر ... وتركني لحظة ثم عاد متدثرا في (روب دي‌شامبر) خفيف من الحرير (الساتان) لم يخلعه عنه وهو يطرح جسمه الى جانبي . وبدا الملاعبة والمداعبة من جديد .. وجعل يهدهدني بكلمات الحب ... (يا حبيبتي ، يا معبودتي ، يا حياتي .. الخ .. الى ان صرنا جسما واحدا . لا تفصل بيننا شعرة ..)

وكان (هشام) يلاحظني وانا اقرأ هذه العبارات ، وقد طوقني بذراعيه ، ولست ادرى اذا كان قد تعمد طرح هذا الكتاب امام ناظرى فاتحا تلك الصفحة منه بالذات ، ولكن الذى اعرفه هو ان اصابعه امتدت هو الآخر تفك ازرار ثوبي وتجردني منه ، واستسلمت للامر الواقع وانا شبه حالمة ، ولا ادرى كيف مرت بخاطرى ذكرى اختي (نورية) في تلك اللحظة بالذات ، فصحت وانا نشوى بتلك اللذة الكبرى : « آه ... لو تعلم نورية بما يجرى بيننا الان » فضحك هشام وقال :

« دعيها فى احلامها يا حبيبتي ، والتفتي الى واقعنا الحلو اللذيذ . »

وذكرت ساعتئذ النعوت (الفاضلة) التي اطلقتها المسكينة على هذا (الخطيب) الذى يخونها مع .. شقيقتها الكبرى .. فشعرت بشيء من الخجل مشوب بارتياح ونظرت الى نفسي في المرآة الصغيرة الملقاة على منضدة بقرب ادوات حلاقته .. فهالني ما ارى على صفحة وجهي من علائم (الاثم) الذى ارتكبته .. لقد نظرت الى نفسي فلم اعرفها .. لم تبق لى تلك النظرة البريئة الحالمة . والنفس الطاهرة العفيفة .. لقد دنست نفسي وخنت زوجي واختي (الطفلة) البريئة التي اعتمدت علي فى اقناع هذا الشاب فى الاسراع بالتزوج منها .. فجئت انا لكي ابعده عنها .. لقد اصبح زواجه منها مستحيلا الان ، اذ كيف

يتزوج من فتاة ، اختها (عاهرة) .. اسلمت له نفسها في اول خلوة يخلوها بها .. وخرجت من داره مسرعة اتعثر باذيال العار ودخلت دار زوجي فوجدته جالسا في غرفة المائدة يحتسي الخمر مع صاحب له في ريعان الشباب وميعة الصبا ، وحين لمحني داخلة نهض من مجلسه وصرخ بي :

« اين كنت ايتها الفاجرة الى هذه الساعة المتأخرة من الليل »؟

فقلت له بارتباك :

« عند الخياطة »

قال :

ما شاء الله .. ما شاء الله لقد جانبك التوفيق يا هذه ، فلم تعرفي كيف تلفقين القصة .. انمظهرك هذا ، بشعرك المنفوش وثيابك المبتذلة .. وجسمك المضطرب وعينيك اللتين يشع منهما الاثم ، كل هذا يدل على انك آتية لتوك من صالون للحلاقة او معهد للتجميل .. اليس كذلك ؟؟

قال هذا وضحك ساخرا ثم اردف :

« والله لافعلن بك الافاعيل ، ولارسلن بك الى الجحيم ايتها الكلبة القذرة » ..

وتقدم مني وهو يتمايل من شدة السكر يريد ان يضربني بجمع يده ، ولكني انفلت منه بسرعة البرق ، وطاشت ضربته فسقط على الارض وهو يرغي ويزبد ويكيل لي اقبح الشتائم وارذلها ، ثم حاول ان ينهض فلم يفلح وراح في غيبوبة تامة ، فاسرع الى نجدته الفتى اليافع الجميل ، ونظر الي وهو يبتسم ابتسامة وقحة قائلا :

« هيا .. وساعديني ايتها القطة الجميلة ، لنحمله الى غرفة نومه »

وسكت على مضض ، وعاونته على حمل زوجي ، فوضعناه في فراشه ، ولم اكن ادرى ماذا افعل ، وخطر ببالي ان ارش وجهه بقليل من ماء « الكولونيا » لعله يستعيد وعيه ، ودخلت مخدعي ، لاحضر

الزجاجة ، من داخل خزانة الثياب ، ونظرت في المرآة واعجبني جمال وجهي ، ورشاقة جسمي ، والجاذبية التي اتمتع بها ، بالرغم من الحال التي كنت عليها ، فشعرت بكره شديد لهذا الزوج الراقد فى الغرفة المجاورة ، وتمنيت لو يموت ، ومددت يدى الى المشط اسرح به شعرى ، واخذت فى زينتى ، بعد ان تخففت من ملابسي ، الا من غلالة شفافة مما يلى الجسد من الثياب ،واخذت اتملى محاسنى في المرآة في شيء من الزهو وقد نسيت ان في الدار ذلك الفتى المراهق ، الذي كان ينافسنى في حب زوجى حتى افسد علي الامر ، واوصلنى الى ما وصلت اليه ، مما رايت ..

وفيما انا انظر في المرآة ، اذ رأيت صورته تنعكس امام وجهى وقد اقتحم على مخدعي واغلق وراءه الباب واحتضننى من الخلف وهو يقول :

« تبارك الله الذى صورك ، فاحسن صورتك .. يا لهذا البهاء . يا لروعة الحسن .. يا للجمال الاخاذ .. »

وصرخت فيه :

« خسئت ايها الجبان .. حاشا لمثلى ان تستسلم لمثلك . »

قال :

« لقد استسلمت لاخر قبل ساعات كما يبدو .. »

قلت :

« نعم .. وقد كان هذا (الاخر) رجلا وليس (مخنثا) مثلك يزاحم النساء على ماخلقن له .. »

فاجابني بان ذكر « مثلا » من الأمثال العامية المبتذلة ، وانحى على شفتى بقبلة طويلة اسكتتنى فيها .. وبدأت معركة بينى وبينه ، بذلت خلالها جهدا شاقا لاتخلص منه ، ولكنه كا نقوى البنية ، لا طاقة لي على مقاومته ، فانتصر علي اخيرا ، وقضى ليلته في « المخدع » الذى قاسيت فيه من الحرمان طوال بضع السنوات الاخيرة ما الله به عليم .

يا ويلتا أاصبحت بين ليلة وضحاها اتقلب بين احضـان الرجال . وانا التى كنت اتيه على اترابى فخرا بطيب السمعة وحسن السيرة .. ولكن المراة هذه حالها .. اذا استسلمت مرة واحدة هان عليها الامر بعد ذلك واستسهلته . واشرقت الشمس من جديد وارسلت خيطا من اشعتها ، خلال النافذة فايقظنى من نومى وكان المخدع خاليا الا مني . وخرجت فاغتسلت وارتديت ملابسى وتزينت باحسن زينة .. واعددت مائدة الفطور .. وذهبت الى غرفة زوجى لاوقظه وانا اتوجس خيفة . ونظرت الى وجهه فاذا به تعلوه صفرة الموت .. ومددت يدى اليـه اتلمس جسده ، فاذا هو جثة هامدة . ووليت من حجرته فرارا ، وملئت من منظره رعبا ...وخرجت الى الطريق وانا اضحك تارة وابكى اخرى وقد طار صوابى وكدت افقد عقلي مما رايت في يومـي وليلتى مـن احداث غريبة ، واسرعت الى معارفه واصدقائه انهى اليهم الخبر ، اذ لم يكن لزوجى المرحوم اقرباء ، وجاء سكان البيوت المجاورة والاصدقاء، وجاء بعض اقرباء والدتى فقاموا بما يتطلبه الموقف في مثل هـذه الظروف ، وانتهت صفحة حياة كانت عبئا ثقيلا على كاهلى وورثت منه مالا كثيرا وبدأت حياة جديدة كلها لهو ولعب ، وتحرر من كل المثـل والتقاليد ، وعتق من اية سيطرة علي ، وانقلبت الى امرأة مستهترة افعل كل ما يروق لى ، وانال ما اشتهى دون تحفظ او مبالاة ، لا يردعنى عن ذلك رادع ، ولا يؤخرنى عنه عرف او حياء .

وضممت الي شقيقتى « نورية » واسكنتها في احدى غرف الدار الواسعة ، وكانت لا تزال في مرحلة الدراسة العالية ، فهي في الصـف المنتهي من احدى الكليات ، وكان ينفق عليها رجل عجوز يمـت لامى بصلة قرابة ، فكفيته مؤونة ذلك ، وقد عدت الى محبتها والترفيـه عنها بعد ان مرت تلك الفترة القصيرة من حياتى ، ولكنى لم اتحـدث اليها عن « هشام »قط ، وما عدت اراه او اسمع عنه شيئا منذ عهـدي به فى تلك الليلة التى غيرت مجرى حياتى .

وجاءتنى اختى في يوم من الايام وهي مضطربة ، قد علا وجهها الاصفرار واحتضنتني قائلة :

« سيتزوج يا زكية •• سيتزوج بعد اسبوع » واجهشت باكية •

وقلت لها : ــ

« من هو يا حبيبتي » ؟؟

قالت : ــ

« هشام »•• خطيبى الذى وعدنى بالزواج •• لقد خدعنى ونكث بوعده •• وسيتزوج من فتاة اخرى خلال بضعة الايام المقبلة •

قالت هذا وعادت الى النشيج والبكاء •

قلت لها :ــ

« اوما تزالين تحبينه يا نورية » ؟

قالت :

« اى والله •• يا اختي •• احبه وهو يحبني أيضا •• ولكنه تغير فجأة واصبح يتحاشى اللقاء بيننا •• منذ ما يقرب من الشهرين •• ولابد ان السبب اهله اللئام •• آه •• يا زكية ما أشد شقائي الآن •• »

واردت ان القي عليها سوءالا اخر يتعلق بالمدى الذى وصلت اليه العلاقة بينهما ، ولكنى رايت تأجيل ذلك الى فرصة اخرى ، فواسيتها بكلمات مناسبة ، ووعدتها ان ابذل جهدى فى اقناعه بالعدول عن زواجه بغيرها ، وطلبت اليها ان تضرب موعدا لمقابلته هنا ، لعلي ابلغ منه ما يعود عليها بالخير والهناء ••

وخلوت به في حجرتي الخاصة ، وتحدثت اليه حديثا طويلا بذلت خلاله جهودا جبارة في سبيل اسعاد اختي ، واعادة العلاقة بينهما الى سابق عهدها من الود والصفاء ، بيد انه ضحك من اقوالي ساخرا ، واخذ يغازلني ويعيد علي مسامعي بصوت مرتفع تفاصيل ما حدث بيننا فى تلك الليلة الحمراء ، وختم حديثه قائلا :

« حسبت انك في حاجة الى «رجل» يقضي معك سواد الليـل بعد ان فقدت «رجلك» المحترم منذ شهرين ، وانك لا تزالين تذكرين حبيبك الاول « هشاما » فقد صدق الشاعر حيث قال :

نقل فؤادك حيث شـئت من الهوى
ما الحـب الا للحبيـب الاول

كم منـزل في الارض يالفـه الفتى
وحنينـه ابـدا لاول منـزل

قال هذا وهم باحتضاني وتقبيلي ، واذا بي اسمـع نشيجا من الحجرة المجاورة ، ودفعته عني بعنف وخرجت من الحجرة واذا بأختي تسرع الخطا نحو باب الدار ، وهي تنتحب ..

يا للمسكينة .. لقد فهمت كل شيء .. وعلمـت الآن سر فتاها الذي تحبه .. وعرفت سبب تغيره عليها ونفوره منها ..

وذهبت وراءها راكضة وانا اصيح بها ان تعود لكي اشرح لهـا الامر .. ولكن ماذا اقول لها ان استجابت لندائي .. وسمعت صرير «فرامل» سيارة تقف فجأة وترتطم بجسم ، تعقبه صرخة فتـاة .. وركضت نحو مصدر الصوت ، واجتمع الناس حول جثـة «أختي الصغرى» تسيل منها الدماء ونظرت الى ذلك الجمع ورأيت من بينهم «هشاما» فبصقت في وجهه ، ثم اصابني دوار في رأسي وشـعرت بغثيان ثم سقطت فوق جثة اختي مغشيا عليّ ...!



فتاة من الخرطوم

كان ذلك في يوم من ايام تموز قبل عهد بعيد ، كنت اجلس فيه وحيدا على ساحل البحر في (بيروت) اراقب مغرب الشمس بشغف شديد ، فقد كنت اعشق ذلك المنظر حتى ما اكاد امضي يوما في تلك المدينة دون ان اسرع قبيل الغروب الى ساحل البحر من جهة ، المنارة ، لأملأ عيني بذلك المنظر الساحر وامتع نفسي برؤية الشمس كيف يأخذ قرصها بالاحمرار الشديد ، وهي تسقط رويدا حتى تلامس حافتها السفلى مياه البحر الهادئة ثم تبدأ تغطس قليلا قليلا فيختفي نصفها الاسفل ثم تغوص كلها في وسط البحر ، ويبدأ الظلام يزحف حتى يغمر تلك الناحية بأسرها ، ويبدو حينذاك منظر البحر مخيفا مرعبا كوحش هائل قد فغر فاه متهيئا لابتلاع فريسته .

وكنت في ذلك اليوم جالسا كعادتي ، ارقب الغروب ، واذا بصديقي ـ السوداني ـ يقترب من مجلسي ذاك بقامته المديدة وبشرته السوداء ـ وقد تأبط ذراع كاعب حسناء ذات ، (فتنة) وجمال صارخ، فكانت وهي تسير الى جانبه ببشرتها ناصعة البياض وشعرها الفاحم ينطبق عليها قول الشاعر :

الوجه مثل الصبح مبيض
والشعر مثل الليل مسود
ضدان لما استجمعا حسنا
والضد يظهر حسنه الضد

وقمت لاستقبالهما وانا لااكاد اشبع من النظر الى وجهها . وتقدم الفتى نحوي واشار اليها قائلا :

اقدم لك (فتاة من الخرطوم) فمدت لي يدا بضة رخصة ،وحيتني باللهجة المصرية المحببة الى نفسي ، ومددت لها يدا مرتجفة فصافحتهـا وانا كالمذهول ، واحست هي ، بما انتابنى من ارتباك فابتسمت ابتسامة مشرقة شعرت خلالها ان الدنيا بأسرها تبتسم لي واحسست كأن الشمس عدلت عن المغيب فأشرقت لتنير لنا دنيانا من جديد •

ودعوتها الى الجلوس ، وجلسا الى جانبى فما تمالكت نفسي ان قلـت لهمـا :

« تباركت (الخرطوم) اذا كانت ارضها تنبت كل هذا الجمـال السـاحر •• »

فضحكت ضحكة وكأنها رنين اجراس ناعمة وقالت :

« انا يا سيدى متحدرة من اصل لبنانى ، وقد سافر والدي الـى السودان ، وانا بعد طفلة لم اتجاوز السنة الثانية من عمري ، واكتسب هناك الجنسية السودانية ، فانا لبنانية المولد سودانية الجنسية » •

قلـــت : •

« رعي الله ــ الجبل ــ الرائع الجميل ، فكم له علينا من افضال »•

وقضينا بعد ذلك امسيات سعيدة واوقاتا هانئة طيلة اشهر ثلاثـة مرت كلمح البصر كنا نلتقى فيها دائما في الليل والنهار لا نكاد نفترق الا في ساعات النوم •

وكانت فتاة عصرية بكل معنى الكلمة ، قد اطلق لها ابواها حريتها الكاملة ، فلا تتحرج من الاختلاط باي شاب ، والتحدث اليه في جراءة ، تزينها ثقافة عامة واسعة فهي تجيد اللغتين الانكليزية والفرنسية فضـلا عن تضلعها في اللغة العربية وتذوقها للادب ، وفهمها للشعر ، فكنـا نتناشد الاشعار ونتناقش في اسلوب هذا الكاتب او ذاك الى ان بـدأ (كيوبيد) يرسل بسهامه الواحد تلو الاخر فيمزق قلبى ، واخـذت

اشعر بشيء من الخوف عليها ، كمن امتلك جوهرة ثمينة يخشى ان يخطفها منه اللصوص فصرت انظر الى كل من يحدثها كانه لص يريد ان يسرق مني (جوهرتي) الغالية .

وبحت لها بحبي في يوم من الايام وبادلتني حبا بحب او قل تظاهرت بذلك ، وحين شعرت مني حرصا على الحد من (حريتها) في الاختلاط بمن تشاء ، صارت تظهر تذمرا او تمردا على هذا (الرق) كما تسميه ، فقالت لي في يوم من الايام :

« ان الحب ـ يا صاحبي ـ تفسده الغيرة العمياء وتقضي عليه في مهده ، فانك متى ما احببت تريد ان تقفل على (محبوبتك) الابواب وتحجبها عن الانظار ، وتغار عليها من ـ ابيها وامها ـ ومن النسيم الذي يداعب شعرها و ـ الكأس ـ التي تلامس شفتيها ، وما هذا هو الحب ـ بل هو الانانية ذاتها ، اما الحب فهو فوق ذلك بكثير ، وهو ـ اسمى ـ من أن تقيده الغيرة بقيودها الحديدية انك بهذا لا تحب المرأة بل تحب نفسك لو كنت تعلم » ..

ومرت على هذا الحديث ايام ، ووعدتني ان نقضي سهرة ممتعة في الفندق الكبير (بلودان) من اعمال سورية ، وكان قد اعلن عن حفلة كبرى سيقيمها الفندق بمناسبة من المناسبات التي ما عدت اتذكرها .

وسافرنا الى هناك في الموعد المضروب ، وحضرنا الحفلة المذكورة وكان البهو يعج بالراقصين والراقصات على نغم الموسيقى الصاخبة واتخذنا مجلسنا في ركن بعيد عن قاعة الرقص كانت فيه مائدة خالية ، وكنا نتحدث عن مشاريعنا التي اعددناها لبناء (عشنا) الجميل في الصيف القابل ، حين نكون قد حزمنا امرنا وفاتحنا اسرتينا في الموافقة على زواجنا المرتقب ..

وسكتت الموسيقى وعاد الجميع الى مجالسهم ورأيت ان فتاتي

اصبحت مطمح انظار الحاضرين .. ورأيتها تختلس النظر من شاب وسيم كان يجلس غير بعيد منا ، وخيل الي ان ما يشبه الابتسامة قد ارتسم على وجه كل منهما .

وذهبت لقضاء حاجة ، وفي طريق عودتي بدأت الموسيقى تعزف لحنا راقصا آخر ، وشعرت بشيء من الخوف الذي كان ينتابني قبلا من (اللصوص) قد اخذ يعاودني ، ووصلت مجلسنا المعهود ، فما راعني الا رؤية كرسيها خاليا ، وحانت مني التفاتة فلمحتها بين ذراعي الشاب الذي كانت تخالسه النظر وهما يرقصان وقد اسلمت جسمها لمراقصها واغمضت عينيها وارتسم على محياها اثر الهناء والسعادة .. وعدت ادراجي الى باب الفندق ركضا وانا اصيح كالمجنون ..

« نعم .. يا فتاتي انا ــ انانى ــ في الحب ، ولست افهم هذا الحب الذى تعنينه والذي هو ــ اسمى ــ من ان تقيده الغيرة بقيودها الحديدية » ..

وغادرت دمشق في صباح اليوم التالى عائدا الى بلادى ، وكان ذلك آخر العهد بيننا .



فتى من السودان

كان ذلك منذ عشرين سنة او تزيد وكنا ثلاثة نفر ، التقينا بطريق المصادفة في الجبل الجميل ، (لبنان) ، في منتصف شهر آب وسكنا في دار واحدة ، وشعر كل واحد منا انه قريب من صاحبه بالرغم من ان احدنا من الموصل ، والآخر من الخرطوم ،وانا من بغداد ، ولا بد ان ارواحنا كانت مؤتلفة فقد جاء في الحديث النبوي الشريف :

(ان الارواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) ..

وكان صباح جميل ، قد انهمر المطر فيه غزيرا ، وسفوح الجبل قد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج وداعب النسيم العليل اغصان الصنوبر فكان لها حفيف جميل والبحر من امامنا قد تلاطمت امواجه فكان لها هدير ، وابتلت التربة من حولنا فأصبح لها اريج لطيف ، وبدأ الفتى الموصلي يتحدث الينا عن غرامه بفتاة من اهل هذه الناحية ، فهو حيران لا يدري اتبادله حبا بحب ام انها تجامله او تضحك منه حين توقظه في الصباح الباكر كل يوم لتلاعبه (التنس) وهو لذلك يقضي الهزيع الأخير من ليله متناوما ينتظر حضورها مع الفجر ، وحين يسمع وقع قدميها يتظاهر في النوم ، ولا يجيب نداءها ، الا بعد ان ينفد صبرها وتبدى تذمرا محببا اليه فهي تبدأ تكرر عبارة (يا ربي يا ربي)دون ان تمد حرف النداء بل تلفظ الياء مفتوحة فقط وتسرع بدمجها بحرف الراء ، كل ذلك بغنج لطيف ، يلهب عواطف صاحبنا ، فيتثاقل في نومه ليستزيدها من هذا التذمر الممتع وكان يريد ان يخطبها ، ليتخذها زوجة له ، ولكنها ليست على دينه فكيف يقنع اهلها او يقنع اهله وهناك فتاة تنتظره في بلده ، قد شغفت به حبا ، وان كانت قد حرمت من نعمة

الجمال الذى تتمتع بـه هذه ٠٠)

وفيما كنا نصغى لحديث صاحبنا هذا واذا بصراخ ينبعث من ناحية الدار التي تسكنها الفتاة (المحبوبة) فهرعنا الى مصدر الصوت واذا بأختها الكبرى تتلوى من الألم ، فقد ألم بها عارض جعلها تصرخ مستغيثة وحين علم صاحبنا ان لا بأس على من كان يهوى القي كلمتين يواسيها بها ثم طلب الينا العودة الى مجلسنا ذاك ، هناك حصل نقاش بينه وبين الفتى السوداني ، فقد سأله هذا لو كانت فتاتك ٠٠ بدلا من اختها هي التي تتألم فما كنت تصنع ٠٠ ؟

قال ـ اذن لقلبت الصيدليات رأسا على عقب ولأتيت بالاطباء من كل حدب وصوب ، في سبيل تخفيف آلامها ٠

قال ـ هذه هي الأنانية بعينها اما انا فباسم الانسانية سافعل ما كنت تنوى ان تفعل لو كانت هذه مكان تلك ـ وانى اقولها جازما ، لست اشعر نحو الاثنتين باي شعور بالحب او الاستلطاف ٠ قال هذا وذهب مهرولا لايلوي على شيء ٠

وعاد بعد قليل بما سكن المها وقد اكبرت في هذا الفتى شهامته وبدأت انظر اليه في احترام ٠ وبدأنا نذهب سوية الى بيروت فيتحدث الي عن بلده السودان ٠٠ وعن الاستعمار الجاثم على صدور السودانيين منذ سنوات لا يكاد يتحول عن بلادهم ولا يريم وعن ذكريات طفولته في الخرطوم ، وحنينه الى تلك الربوع التى فارقها منذ سنوات ، ليكمل تحصيله في الجامعة الامريكية هنا ٠٠ وكيف كان يوازن بين اللهجتين (العراقية والسودانية) فيرى فيهما تشابها عجيبا حتى ان بعض الكلمات التى تستعمل في السودان ، تنطق بها نحن البغداديين ونقصد بها نفس المعاني التي يقصدونها هناك ، وكان يعجب لهذا التشابه الغريب بين البلدين من كل الوجوه ، فهو يرى بلده اقرب الى العراق منه الى مصر من وجوه عديدة ، وكان يغبطنا ان لم يحسدنا

ـ على الاستقلال ـ الذي يتمتع به العراق دون بقية البلاد العربية ، وكم تمنى ان تتيح له الظروف فرصة زيارة العراق البلد الذى احبه منذ الصغر ..

وكان يتخيل نفسه وقد اصبح طالبا في الكلية العسكرية العراقية . وكنت امنيه واعده بان الله لا بد ان يحقق له خياله ذاك .. مبديا له استعدادي لمد يد العون له بكل ما وسعني من جهد ، وانني انتظر زيارته للعراق في الصيف القابل وسيحل ضيفا علي ـ .. وافترقنا وعاد كل منا الى بلده وكنت متلهفا لسماع اخبار ذلك الفتى السوداني النبيل الذى يشتعل صدره بالحماس الوطنى والقومى ، آملا ان اراه في زيارته للعراق التى وعدني بها .. ولكن ذلك الصيف انقضى ومضى واعقبه صيف .. وصيف . حتى انقضت عشرون عاما على هذا ، في كل عام منها صيف كنت اراقب فيه زيارته للعراق ، ولكنى علمت اخيرا من بعض القادمين من السودان ، ان ذلك الفتى المسكين الذى اصبح رجلا الآن . قد اصيب بالشلل بغتة وانه الان قعيد بيته ولا يزال يذكر حديثه القديم واياي ... ويتحرق شوقا الى رؤيتى ورؤية بلادى ، فوا رحمتاه لك ايها الصديق،والف تحية من ضفاف الرافدين اليك في اقصى اعالي النيل.



قبلة الدم

استيقظ الطبيب من نومه حين ارتفع الضحى واطل من النافذة وكان القطار يرسل صفيرا حادا وهو يدخل محطة الموصل ، فارتدى ملابسه على عجل وتهيأ للنزول حين توقف القطار في المحطة ... وقضى ليلته في احد فنادق المدينة . وفى الصباح الباكر استقلت به سيارة اجرة نقلته الى مقر عمله في مدينة (زاخو) ليعمل طبيبا في مستوصف القضاء.

وقضى فى عمله المرهق زهاء سنتين وقد كاد يهم به مرض « الحمى الخبيثة » مرارا لولا رحمة من ربه ، وقد كان ذلك المرض متفشيا حينذاك ، فكان الطبيب يعمل جاهدا ليل نهار في سبيل مكافحته وانقاذ المواطنين من بين براثنه . في همة لا تعرف الكلال .

وكان صاحبنا يقضى ايام الجمعة من كل اسبوع في داره وحيدا يطالع ما يرد عليه من الكتب والمجلات العلمية في البريد .ليزيد ثقافته الطبية ويستزيد من العلم فيطبق على مرضاه خلال الاسبوع ما يصل الى علمه من اكتشافات طبية حديثة .

وذات يوم كان مضطجعا على كرسيه المريح (الشيزلونك) وفى يده كتاب يطالعه . وقد كادت تاخذه سنة من النوم فسمع طرقا على الباب فرمى الكتاب من يده ونهض متثاقلا ليرى من الطارق . وفتح الباب واذا بشاب يبدو عليه الارتباك ويظهر من سيماه انه من الاكراد المسيحيين الذين يقطنون الحدود العراقية ــ التركية . وهو يطلب اليه ــ بلغة عربية مكسرة ــ ان يرافقه ليعود أمرأة مسكينة فقيرة الحال . تعانى من دائها الوبيل ماتعانى منذ زمن طويل . وقد اشفق هو عليها

دون ان تربطه بها رابطة قرابة فجاء يطلب معونته ويأمل نجاة تلك المسكينة على يده .. وهو ذلك الانسان النبيل الذى طالما تحدث القرويون عن شهامته وعلمه الغزير ما شاء الله لهم ان يتحدثوا .. والله لا يضيع اجر من احسن عملا ..

ولبى الطبيب ذلك النداء . وغادر داره عجلا دون ان يلتفت الى قبعته ومعطفه .. او يسأل عن الوجهة التى يسير فيها . وامتطى صهوة جواد أحضره الرسول خصيصى لهذه الغاية وقال :ـ

(هيا ... ودلنى على الطريق)

وترجل الطبيب عن جواده في قرية صغيرة امام كوخ حقير خال الا من فراش قذر ملقى في احد الاركان وحين دخله وجد امرأة لم يصدق انها من البشر لنحولها واصفرار وجهها . فقد فتك بهاداء السل الوبيل فتكا جعلها كومة من العظام المكسوة بالجلد .. وتقدم الطبيب منها ليفحص عن حالها فظهر على شفتيها ما يشبه الابتسامة وقالت بصوت ضعيف لا يكاد يسمع ..

« لم يعد ثمة أمل . ولكنى اوصيك بهذه الطفلة فان قدر لها النجاة على يديك ولم تلحق بأمها فهى لك »

وكشفت عن طرف لحاف ممزق قذر . فبانت تحته طفلة لم تتجاوز الرابعة من عمرها .. وقد احمرت وجنتاها بتأثير الدفء ... وحين حملها الطبيب بين ذراعيه اسلمت امها الروح وانطفأت حياتها كما تنطفىء الشمعة الضعيفة بصدمة نسيم خفيف ... وعاد الطبيب بالطفلة الى مقر عمله في المدينة وكان قد علم من اهل القرية ان والدها قد مات بداء السل قبل زوجته بعام واحد . وان هذه الطفلة لا بد قد ورثت عن ابويها المرض القتال اوانتقل الها بطريق العدوى ولكنه قال بالرغم من كل ذلك ..

« ينبغي لها ان تنجو • والا فسوف اكفر بالطب والاطباء وليعلم الناس ان كـل ذلـك دجل وشـعوذة » •

ونظم من يوم وصوله منهجا صحيا لتغذية الطفلة ومداواتها وضعه بعد دراسة دقيقة • وآلى على نفسه ان لا يحيد عنه قيد شعرة • ونعى على الناس في سره تهاونهم في تطبيق وصايا الطبيب • وعزا الاخفاق في شفاء المرضى لاهمالهم او تقصدهم اغفال وصايا الاطباء • فالذنب ذنبهم لا ذنب الطبيـب •

ومنذ ذلك اليوم اخذ يقضي اوقات فراغه في الاعتناء بالطفلـة ومداعبتها • بعد ان تبناها واطلق عليها اسما جميلا هو (فاتنة) وطالب بنقله الى العاصمة • ولبى المسؤولـون طلبه • وتم تعيينه في أحـد المستشفيات في بغداد وهنالك تهيأ له تنشئة الطفلة نشأة عصرية • حيث ارسلها الى روضة الاطفال في احدى المدارس الاهلية • وقد سجلت رقما قياسيا في الذكاء فكانت تحوز الاولية دائما حتى اكملت الدراسة الابتدائية فادخلها في الكلية الامريكية • واخذ يعـد العدة للحصـول على اجازة دراسية يقضيها في انكلترا • للتخصص هناك في الامراض الصـدرية ••

* * *

بلغت (فاتنة) الخامسة عشرة من عمرها وقد اصبحت فتاة فاتنة حقا وجميلة جدا وكانت فارعة القامة لها صدر مكتنز وشعر ذهبـي وعينان زرقاوان كلون السماء الصاحية ووجه ابيض مستدير مع فـم وانف مناسبين • تزين فمها اسنان لؤلؤية ••• وكانت باسمة الثغـر دوما • مرحة •• فرحة • تنال من الطبيب كل رعاية وحنان • فكان لها نعم الوالد الرؤوم يسهر من اجل راحتها ويبذل ما في وسعه في سبيل مرضاتها وادخال السرور الى نفسها فكان يصحبها الى المآدب والحفلات ويخرج معها الى المتنزهات • وكـان اصدقاء الطبيب وذوو الفضـول

من الناس يعجبون لعزوفه عن الزواج فيتحدثون معه في الموضوع • فكان يجيبهم ضاحكا بان الغاية من الزواج هي انجاب الاولاد وها هي ذه فاتنة ابنتي الوحيدة وان فيها الكفاية ••

واخيرا منح الطبيب اجازته الدراسية المنتظرة واستصحب فاتنة معه في سفره واسكنها في قرية جميلة من قرى الريف الانكليزى وكانت من اجمل فتيات القرية واحسنهن تربية واوسعهن ثقافة • وقد اجادت فن التصوير وبرعت في الموسيقى فلم يكن يعوزها من متطلبات الفتاة العصرية الا الرقص والغناء • وهذان منعت منهما حسب منهج والدها الطبيب فليس لهذا الجسم الرقيق وتلك الرئة المشكوك فيها أن يعرضا للاجهاد • ولم تخالف في يوم من الايام وصايا والدها الذى تحبه وتثق به فلم ترقص ولم تغن ولكنها كانت منشرحة الصدر دوما • تشعر بالسعادة ابدا تبدو عليها مخايل الصحة والعافية • لا تنفك الابتسامة تعلو ثغرها العذب • لم تعرف التبرم بالحياة او الشكوى منها • ولم يخطر في بالها انها معرضة الى الاصابة بذلك الداء الوبيل • وكان والدها سعيدا بذلك لا يريد ان ينغص عليها حياتها • بادخال زوجة له الى الدار • فلم يفكر في الزواج يوما خشية ان لا تكون الزوجة المنتظرة على وفاق مع فاتنة فتتألم هذه وتذوب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس • وهذا امر فظيع لا يجوز له مجرد التفكير فيه •

* * *

وحين بلغت فاتنة ربيعها السابع عشر اصبحت مطمح الانظار • واخذ الشباب يحومون حولها كما يحوم الفراش حول النار • ولكن والدها كان احرص على تأدية واجباته الابوية منه على تطبيق منهج حياتها الصحى فلم يفتح المجال لاي شاب مهما اوتى من خلق عظيم ان يخلو بها دقيقة واحدة او يحظى بمرافقتها الى دور اللهو والسينمات • وهي وان كان والدها لم يمنعها من الاتصال بهؤلاء الشباب بصراحة فقد كانت تقرأ افكاره وتفهم معنى نظراته او تلاحظ اسارير وجهه

فلا تفعل ما يثير غضبه ، وهي لا تكاد تلقى اباها الا اسرعت اليه • فالقت بنفسها بين ذراعيه • تلثم يديه ووجنتيه • وينحني عليها فيطبع على جبينها قبلة يودعها مما يحمل من عطف وحنان ، شاكرا الله على انعمه • فهو لم ير منها منذ طفولتها الا خيرا •ولم يعرف منها الا البر به والطاعة له في كل ما اراد • فكان يحبها كأشد ما يحب الآباء اولادهم ويؤثرها اعظم الايثار•لا يدخر في سبيلها جهدا ولا يرضى بهنائها بديلا•

وقد كان صاحبنا سعيدا خلي الباب مغتبطا في حياته هذه بما اتاح الله له من نعمة موفورة ، ورزق ميسور وعيش رغيد وحياة هادئة ناعمة تضفي عليها هذه الفتاة من جمالها وهدوئها ومرحها واطاعتها ما جعل من داره جنة من جنان الدنيا لولا ان الشيطان لا يعجبه ان يستمر للناس ما اتيح لهم من سعادة دائمة • والشيطان ماكر ماهر قد مارس فتنة الناس الصالحين الذين يتلون كتاب الله صباح مساء فكيف بصاحبنا هذا الذى لا يكاد يعرف من الدين الا اسمه • ومن آيات الذكر الحكيم الا ما كان يطرق اذنيه من تلاوة يرددها الشيوخ والمقرؤون في المذياع • وهى تدخل اذنيه دون ان تبلغ شغاف قلبه ••

وقد علم الشيطان من امر صاحبنا هذا ما شجعه على زيارته مستخفيا فيستقر في قلبه متحينا الفرصة المواتية وها هي ذه قد واتته في ظهيرة يوم من الايام ، حين عاد الطبيب من عمله فدخل الدار ، فما ان اقبلت عليه الفتاة لتعانقه كما اعتادت ان تفعل حتى اخذ الشيطان يزين له ان يطيل في مداعبتها وتقبيلها واذا هو ينظر اليها فيرى اجمل وجه خلقه الله ، واذا به يتحدث الى نفسه بما زين الشيطان في قلبه من اغراء وشر ، ولكن جانب الخير في نفسه يتغلب فدفعها من بين احضانه في شيء من الغلظة غير قليل ، ويهرب منها الى غرفة المطالعة ، فيفتح اول كتاب يقع عليه نظره ، فيطالع فيه دون ان يفهم مما يقرأ حرفا واحدا، واذا بالخادمة تعلن له قدوم زائر يلح في الدخول •• ويأذن للزائر في

الحال ليتخلص مما في نفسه •• واذا هو زميله (كريم) الذى تعرف به حين كانا يدرسان معا في كلية بغـداد فائتلفت منذ التقيا روحاهمـــا واتصلت بينهما عرى المودة ، وتعاهدا على الـوفاء ، والمشاركة فـى السـراء والضراء ، وكان كريم قد وصل الى هذه المدينة منذ اشـهر اربعة •• وراى فاتنة مع أبيها عدة مرات ، ووقعت من نفسه موقعـا حسنا واستلطفها اول الامر ، ثم تطور استلطافه هذا الى حب جارف ، وغرام عنيف ملك عليه لبه •• فما عاد يحتمل هذا الجفاء الذى يـراه منها كلما لقيها في الطريق ، او جمعتهما المصادفة في حفلة من هـذه الحفلات التى تغشاها بصحبة ابيها •• فجاءه اليوم خاطبا ايجرب حظه وبدأ حديثـه قائـلا : ـ

(ايها الصديق •• لقد جئتك في امر طالما ترددت بالافضاء بـه اليك خشية أن تردنى عنه ردا غير جميل ، فتقضى بذلك على امل كان ولا يزال يراودنى في يقظتى ومنامي وهو الزواج من ابنتك ، فاتنـة ، فان كنت ترانى كفؤا لان اصهر اليك فاسمح لى بملازمتها لأجل معلوم لعلى اجد منها ما يهيىء لي من امري ، رشدا فآتيك بخبر اتفاقنا على الخطبة ، فتبارك زواجنا ، وتسعد لسعادتنـا •

وقد وجد الطبيب في ذلك مخرجا من محنته فلم يمانع فى تلبيـة طلبه هذا على شروط معينة ، أولها ان يتدرج كريم في بثها لواعج هواه وان يجنبها مغبة مفاجأتها بعبارات الهيام دونما تمهيد او اسـتعداد منها لتقبل ذلك ، وثانيها انيعده بالابتعاد عنها الى الابد اذا خاب فى بغيته بعد شهر من ملازمته لها • وان يطبق اخيرا وصاياه الطبية حرفيا اذا قدر لهما ان يتزوجا • وعاد كريم بعد خمسة عشر يوما من ملازمـة فاتنة ليبلغ اباها نبأ خيبته في تلك التجربة المؤلمة ، وليعلمه ان مـرد اخفاقه هذا الى انه اي (الطبيب) علمها كل شىء الا ما يتعلق بالـزواج فلم يذكر لها انها سترتبط في يوم من الايام بذلك (الرباط المقدس)

مع رجل ما .. فذكره الطبيب بما اشترطه عليه وقـال :

« ارأيت الى النبتة الجميلة يتعهدها البستانى صباح مساء حتى اذا اينعت ونمت آن لها ان تؤتى اكلها ، جاءها حاصب من السمـاء فـذوت كـأن لم تـك بالامـس .

تلـك النبتة هـى (فاتنتى) الجميلة الحبيبة قد تعهدتها حتـى ترعرعت وآن قطافها ، وانى لأخشى عليها من لجاجتك يا صاحبـى ، فاخـرج غير مطـرود » .

* * *

مرت سبعة اشهر على الحادث المذكور،وانتهى فصل الشتاء وبدت تباشير الربيع واخذ الطبيب يتهيأ للعودة الى بغداد ، وفي اوائل الصيف ابحرا الى بيروت واستأجرا دارا مؤثثة في قرية من قرى لبنان لان فاتنة رغبت في قضاء مدة من الصيف في ذلك الجبل الجميل قبل الشخوص الى بغداد ، فكانت تخرج كل يوم بصحبة ابيها للتنزه فتفتن بجمالهـا الرائع اعين الناظرين . واقيمت في يوم من الايام حفلة راقصة في الفندق الكبير ، امتنع الطبيب بادىء الامر من حضورها خوفا على فتاته من ذلك الجو الراقص الموبؤ ، ولكنها طلبت اليه ان لا يحرمها شهود الحفلـة الرائعة التى ستنتخب خلالها ملكة للجمال من بين الحاضرات .. ووعدت اباها ان لاتشارك في الرقص على اى حـال .. وكانت مفاجاة غـير متوقعة ان وجدا كريما قبالتهما يحييهما احسن تحية ويخاطب الطبيب قائـلا : ـ

« انا مستعد يا سيدى ان اغادر المكان في الحال ، ان كان ذلـك يرضيك ، ولكن الا ترى انك تظلمنى بهذا .. ثم انك كنت قد سمحت لي بملازمة الآنسة شهرا كاملا ، ولم اقض برفقتها الا خمسة عشر يوما فقط ، فهلا سمحت لي يا سيدى بساعتين اخريين معها ؟؟ »

قال الطبيب : على ان لا ترقصا . وبعد ان وعده كريم بذلك . عاد

الطبيب فسمح له بمراقصتها شوطا واحدا على ان يتوقف عن الرقص قبل أن يبدو عليها التعب لانه يضرها وان لم تشعر هي بذلك في اول الامر فكاد المسكين يطير فرحا بهذه الامنية التى طالما تمناها وراودتـه في احلامه فصاح قائلا : « حمدا لك والف شكر ، واقسم على ان أعمل بنصيحتـــك • »

وبدأت الموسيقى تعزف لحنا راقصا واحتواها الشاب بين ذراعيه وفغر الجميع افواههم دهشا ، وشخصت الابصار الى هذا المحظـوظ الذى يلصق صدره بصدر هذه (الجنية) الساحرة ، ويطوقها بذراعيه وتنتقل اقدامهما باتساق مع نغم ـ الفالس ـ الجميل •• وكان الطبيب أشد المتفرجين حسدا لهذا الشاب ، فيا للعجب •••؟؟ ما هذا الدبيـب الذى يحسه في فؤاده ؟؟ وما لجسمـه اخذ يرتجف من قمة الراس الى أخمص القدم •• وما لهذا الدم الذى يغلى في عروقه كلما توجه ببصره اليها ، وهى مغمضة العينين وقد أسلمت جسمها الى مراقصها وتهـدل شعرها الجميل على كتفيها ؟ هل يغار عليها كما يغار العاشق المفتون من غريمه ومزاحمه على فتاته ؟ ياالله ـ اليست هذه الفتاة ابنته ؟ فكيـف تغيرت نظرته اليها • •ـ

لا ••لا •• انها ليست ابنته الحقيقية •• انها فتاة غريبة عنـه ، وان كان قد تبناها فهذا لا يغير من الواقع شيئا •• وهى فتاة رائعـة الحسن ـ انها قطعة من الفن البديع •• انها فتنة للناظرين •• فلمـاذا يتخلى عنها لمن سواه •• وعاد الشيطان فاستقر فى ركن من قلبه وهـو يضحك ضحكته الراعبة •• لقد بدأ ينتصر أخيرا • لقد اخذ يتـم حديثا بدأه منذ كان صاحبه وفتاته في انكلترة •• انها لك •• انت احق بها من كريم وامثال كريم •• والا فما انت الا مجنون •• سخيف • اقدم ولا تخش شيئا •• هيا •• اسرع وانتزعها من بين ذراعيه •• خلـص الفريسة من بين براثن الذئب ايها الجبان ••

ومرت الدقائق بطيئة متثاقلة وسكتت الموسيقى،وتفرق الراقصون والراقصات وغاب الشاب والفتاة عن عيني الطبيب وسدى حاول العثور عليهما ، وكاد المسكين يفقد عقله ، واخذ يخبط هنا وهناك يبحث عنهما دون جدوى ، وجن جنونه ، واخذ يصرخ مناديا باسمها . واخير شاهدهما يخرجان من غرفة تكاد تكون مظلمة ، وسمعها تقول بصوت يبدو عليه الانفعال « كلا يا كريم .. فان قلبى لغيره » ، ولمحت الطبيب واقفا فاسرعت اليه وهي تقول :

(هيا الى الدار يا ابي)..

* * *

وكانت ليلة ليلاء لم يذق صاحبنا فيها النوم الا غرارا .. وقد راى فيما يرى النائم انه زف الى فاتنة ، وكانت تبدو وهى في ثوب الزفاف كاجمل ما خلق الله .. ثم اصبحت فجأة كملاك ذى جناحين وقد طارت من بين يديه وارتفعت الى السماء .. وهى تشير اليه ان اتبعنى ايها الحبيب .. ثم راى كريما وهو يعاتبه عتابا رقيقا على فعلته السيئة هذه فسأله هذا عن المقصود في عبارة « قلبى لغيره » التى قالتها له فاتنة .. فيجيبه كريم .. ان هذا سرها هى .. ولا يريد ان يبوح به وقد اوصته بالكتمان ، واستيقظ في الصباح فاستغفر ربه واستعاذ به من الشيطان الرجيم .. ولعن نفسه في سره ولامها على افكاره السود فما هذه (الفاتنة) الا ابنته .. طفلته المحبوبة التى تناديه بيا ابى

ولم تترك فاتنة فراشها في الصباح كما اعتادت ذلك من قبل ... وذهب الى غرفتها ووضع يده على جبينها فرآه يلتهب بالحمى .. وبذل جهده في الاعتناء بهاوتمريضها دون ان تتقدمخطوة واحدةنحو الشفاء..

وبعد اشهر ثلاثة اصبحت فاتنة على مثل الحالة التى كانت عليها امها المسكينة ، حين عادها الطبيب في تلك القرية النائية من اقصى شمال العراق،وقد ذهب كل ما بذل من جهد فى معالجتها ادراج الرياح.

مسكين ذلك الطبيب .. انه اقرب الى الجنون منه الى العقل الان .. لقدكفر بالطب والاطباء .. واخذ يبذل جهودا يائسة في تسليتها والترفيه عنها وتوفير اسباب السعادة لها .. ولكن واأسفاه .. أن ايامها اصبحت معدودة وعمرها اصبح قصيرا كعمر الربيع .. ولقد طالما قضى الساعات الطوال جالسا على حافة سريرها يحدثها ويحدثها خلال ايام مرضها الطويل شتى الاحاديث ، وكم تمنى أن يسالها عن تلك العبارة التى قالتها في تلك الليلة المشئومة لكريم .. ولكنه لم يجرؤ على توجيه ذلك السؤال خوفا عليها من الانتكاس .

وانتهى الصيف وبدأت رياح الخريف الباردة تهب من جهات الارز في شمال لبنان وفي مساء من امسية شهر تشرين الثانى دخل الطبيب حجرتها ماشيا على رؤوس أصابعه خشية ايقاظها من نومها ، وجلس قبالتها على كرسي من الخيزران واخذ ينظر اليها بحنان وهو يرقب أنفاسها اللاهثة ، ومد يده اخيرا ليجس نبضها ففتحت عينيها وحين راته ارتجفت وظهر على وجهها الامتعاض وقالت له :

« ليتك تركتنى فى احلامى ايها العزيز ، لقد زارنى طيفه ، واخذنى بين ذراعيه وضمنى الى قلبه بقوة ، وكنت في ثياب عرسى البيض ، وقد زففت اليه .. الى من امتلك قلبى ... ولكنك قطعت عليّ هذه السعادة » ...

فصاح بها :

« ومن الذى امتلك قلبك ، حتى اوصلك الى ما انت عليه الان ايتها العزيزة » .

ومرت فترة صمت غير قليلة قبل ان تقول :

« انه انت .. ايها الحبيب .. لقد احببتك حبا امتلك علي مشاعرى .. وانت لاه عني بكتبك وقراطيسك .. وحفلاتك ..

تحسبني طفلة لا تعرف من حياتها الا اللهو واللعب .. فكنت تكن لي حبا ابويا لا يشوبه شيء مما يكون بين المحبين .. وقد اعترفت لكريم في تلك الليلة المعهودة ما انطوت عليه جوانحي من ألم ممض وحب مكظوم ... »

وما وصلت الى هذا الحد .. حتى انحى الطبيب بقبلة طويلة حارة على فمها الجميل .. العذب .. قبلة طويلة من شفتيها الورديتين .. قبلة لا كالقبل السابقة التي كان يطبعها على جبينها كما يفعل الاباء .. قبلة حب .

آه ... ما هذا ..؟ انه ليحس برطوبة في شفتيها .. وانه ليرى دما احمر باناملة حين امرها على شفتيه .

آه .. يا رب .. ان بشفتيها دما ايضا .. وكانت تلك اخر قطرة من الدم في جسم فاتنة المحبوبة ..

لانها صارت من سكان العالم الآخر منذ لحظات ...

محتويات الكتاب

انتهى طبع الكتاب يوم الاحد الموافق ١ حزيران سنة ١٩٦٧



المؤلف من مواليد بغداد ، درس الفقه واللغة على يد والده منذ كان صبيا . اثر في توجيهه الادبي الاستاذان ناجي القشطيني ومنير القاضي . نظم الشعر في السادسة عشرة من سني حياته .. متأثرا بالرصافي وشعراء المهجر ، كما تأثر بالدكتور طه حسين اسلوبا وفكرة .. كتب اول مسرحية حوالي سنة ٩٢٥ واشترك في تمثيلها على المسرح .. نشر له اول مقال وهو في الثالثة عشرة في جريدة (الرافدان) التي كان يصدرها الاستاذ سامي خوندة في بغداد .

وقد نشأ ضابطا ثم ترك الجيش ومارس الصحافة والسياسة وحاول الاشتغال بالتجارة ولكنه خسر كل شيء .

واشرف على تحرير جريدة (الجبهة الشعبية) ثم عاد الى الوظيفة مكرها لقلة ماله وسوء حاله ، وكان خلال اشتغاله بالتدريس يبث الروح الوطنية مبشرا بقرب الخلاص ومهيئا الافكار للثورة . ولكنه فصل من الوظيفة بعد ثورة ١٤ تموز ثم ارسل مقيدا الى سجن الكوت وبعد اشهر اطلق سراحه . واصدر جريدة (الوطن العربي) اليومية السياسية بعد ثورة ١٤ رمضان ثم الغي امتيازها وعين مديرا لسجن الناصرية بدرجة عقيد وبعد ثورة تشرين نقل الى وزارة الثقافة والارشاد مديرا للمكتبات ثم احيل على التقاعد بطلب منه عام ١٩٦٥ وعاد الى ممارسة التجارة وانصرف الى التاليف املا العودة الى مهنة الصحافة التي يؤثرها على كل ما سواها .

مؤلفاته المطبوعة

١ ـ الثمرة الاولى ـ مطبعة دار السلام عام ١٩٢٦
٢ ـ الثمرات ـ مطبعة دار الطباعة الحديثة ١٩٢٨
٣ ـ آثام ـ مطبعة العانى عام ١٩٥٧
٤ ـ اختناق ـ مطبعة شركة التجارة والطباعة عام ١٩٥٨
٥ ـ مختارات بسيم الذويب ـ مطبعة شركة التجـارة والطباعـة عام ١٩٦٠
٦ ـ صدى السنين (شعر) ـ مطبعة الايمان عام ١٩٦١
٧ ـ امرأة سيئة السمعة ـ مطبعة الزمان عام ١٩٦٧

مؤلفات لم تطبع

١ ـ رسائل كتبتهـــا
٢ ـ دراسة عن الشعر فى الف ليلة وليلة
٣ ـ قصة التسلح
٤ ـ شواعر العرب (دراسة)
٥ ـ المورفين (رواية طويلة)
٦ ـ قصائد ثائرة (ديوان شعر)
٧ ـ امرأة من البصرة (رواية طويلة)
٨ ـ صبى من بغداد
٩ ـ فتى من العراق
١٠ ـ رجل من العرب
وهى ترجمة لحياة المؤلف (اوتوبايوگرافى) على غرار الايام من ثلاثة اجزاء ٠

عنوان المؤلف ـ ص٠ب ١٩٤ بغداد

تلفون ٢٧١٠٣ ـ ٦٤٤٩٥



.... ونظرت في المرآة وأعجبني جمال وجهي، ورشاقة جسمي، والجاذبية التي أتمتع بها، بالرغم من الحال التي كنت عليها، شعرت بكره شديد لهذا الزوج الراقد في الغرفة المجاورة، وتمنيت لو يموت، ومددت يدي الى المشط اسرح به شعري، وأخذت في زينتي، بعد أن تخففت من ملابسي، إلا من غلالة شفافة عما يلي الجسد من الثياب، وأخذت اتملى محاسني في المرآة في شيء من الزهو وقد نسيت أن في الدار ذلك الفتى المراهق، الذي كان ينافسني في حب زوجي حتى أفسد علي الأمر، وأوصلني الى ماوصلت إليه مما رأيت...

صمم الغلاف والرسوم الداخلية ابراهيم زاير
طبع الغلاف في الشركة الوطنية للطباعة والاعلان